



العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
شعبة الدراسات والنشر



قراءةٌ حديثةٌ وحوارٌ جديد

تأليف

الدكتور مهدي صالح سلطان

مراجعة

شعبة الدراسات والنشر



العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية

شعبة الدراسات والنشر

كربلاء المقدسة

ص.ب (٢٣٣)

هاتف: ٢٢٢٦٠٠٠، داخلي: ١٧٥-١٦٢

www.alkafeel.net

info@alkafeel.net

الكتاب: خطبة الزهراء عليها السلام سيد النساء.. قراءةٌ حديثة وحوار جديد.

تأليف: الدكتور مهدي صالح سلطان.

الناشر: قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العباسية المقدسة.

التدقيق اللغوي: مصطفى كامل محمود.

التصميم: علاء سعيد الأسدي.

الايخراج الطباعي: محمد قاسم النصراوي.

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق العراقية ٢٢٤٠ لعام ٢٠١٤ م.

المطبعة: دار الكفيل للطباعة والنشر.

الطبعة: الأولى.

عدد النسخ: ٢٠٠٠.

رجب الأصب ١٤٣٦ هـ - أيار ٢٠١٥ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نص خطبة الزهراء عليها السلام

افتتحت الخطبة بحمد الله والثناء عليه والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، إذ قالت: «الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدّم، من عموم نعم ابتدأها، وسبوغ آلاء أسداها، وإحسان منن والاهـا، جمّ عن الإحصاء عددها، ونأى عن المجازاة أمدّها، وتفاوت عن الإدراك آمالها، واستنّ بالشكر فضائلها، واستحمد إلى الخلائق بأجزالها، وأمر بالندب إلى أمثالها، وأشهد أن لا إله إلا الله، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمن القلوب موصولها، وأبان في الفكر معقولها، الممنوع من الإبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام الإحاطة به، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، لغير فائدة زادته إلا إظهاراً لقدرته، وتعبداً لبريّته، وإعزازاً لأهل دعوته، ثم جعل الثواب لأهل طاعته، ووضع العقاب على معصيته، زياداً لعباده عن نقمته، وحياسة لهم إلى جنته، وأشهد أن أبي محمداً عبده ورسوله، اختاره قبل أن يجتبله، واصطفاه قبل أن يبتعثه، وسمّاه قبل أن يستنجه، وابتعثه الله إتماماً لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، فرأى الأمم فرقاً في أديانها، عُكفاً على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرة لله عرفانها، فأثار الله بمحمد ظلّمها، وفرّج عن القلوب بهمّها، وجلّى عن الأبصار عمهّا، وعن الأنفس غمّها.

ثم قبض الله نبيّه ﷺ قبض رافعة واختيار، ورغبة بأبي عن تعب هذه الدار، موضوعاً عنه أعباء الأوزار، محفوفاً بالملائكة الأبرار، ومجاورة الملك الجبار، ورضوان الرب الغفار، ومجاورة الملك الجبار، أمينه على الوحي، وصفيه ورضيه، وخيرته من خلقه، ونجيّه، فصلّى الله عليه ورحمة الله وبركاته.

ثم أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم، زعيم الله فيكم، وعهد قدّمه إليكم، وبقية استخلفها عليكم: كتاب الله، بيّنة بصائر، وآي منكشفة سرائره، وبرهان فينا، متجلية ظواهره، مُديم للبرية استماعه، وقائد إلى الرضوان أتباعه، ومؤد إلى النجاة أشياعه، فيه تبيان حجج الله المنورة، ومواعظه المكررة، وعزائمه المفسرة، ومحارمه المحذرة، وأحكامه الكافية، وبيّناته الجالية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، ورحمته المرجوة، وشرائعه المكتوبة.

ففرض الله عليكم الإيمان: تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة: تنزيهاً عن الكبر، والزكاة: تزييداً في الرزق، والصيام: تثبيتاً للإخلاص، والحجّ: تشييداً للدين، والحق: تسكيناً للقلوب وتمكيناً للدين، وطاعتنا: نظاماً للملّة، وإمامتنا: لمّا للفرقة، والجهد: عزّاً للإسلام، والصبر: معونة على الاستيجاب، والأمر بالمعروف: مصلحة للعامة، والنهي عن المنكر: تنزيهاً للدين، والبرّ بالوالدين: وقاية من السخط، وصلة الأرحام: منماة للعدد وزيادة في العمر، والقصاص: حقناً للدماء، والوفاء بالنذور: تعرّضاً للمغفرة، وتوفية المكايل والموازن: تغييراً للبخس، والتناهي عن شرب الخمر: تنزيهاً عن الرجس، واجتناب قذف المحصنات: حجاباً من اللعنة، والنهي عن الزنا: تحصناً من المقت، وترك السرقة: إيجاباً للعفة، والتنزّه عن أكل أموال الأيتام: إجارة من الظلم، والعدل في الحكم: إيناساً للرعية، وترك الجور في الحكم: إثباتاً للوعيد، والتبرّي من الشرك: إخلاصاً للربوبية.

فاتقوا الله حقّ تقاته، ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون، ولا تتولّوا مدبرين، وأطيعوه فيما أمركم ونهاكم، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(١)، فاحمدوا الله الذي بعظمته ونوره ابتغى من في السماوات ومن في الأرض إليه الوسيلة، فنحن وسيلته في

خلقه، ونحن آل رسوله، ونحن حجة غيبه، وورثة أنبيائه.

أيها الناس أنا فاطمة، وأبي محمد عليه السلام، أقول عوداً على بدءٍ، ولا أقول ما أقولُ غلطاً، ولا أفعل ما أفعلُ شططاً، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(١)، فإن تعزوه تجدوه أبي دون نساءكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم، فبلغ النذارة، صادعاً بالرسالة، ناكباً عن سنن المشركين، ضارباً لأتباعهم، أخذاً بأكظامهم، داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، يجذّ الأصنام، وينكت الهام، حتى انهزم الجمع وولّوا الدبر، وحتّى تفرّى الليل عن صبحه، وأسفر الحقّ عن محضه، ونطق زعيم الدين، وهدأت فورة الكفر، وخرست شقاشق الشيطان، وفهت بكلمة الإخلاص، وكنتم على شفا حفرة من النار، مُدَقَّة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون القدّ [تأكلون الجلد النّيء]، أدلّة خاشعين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم بنبّيه عليه السلام بعد اللتيا والتي، وبعد ما مني بهم الرجال، وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب، ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾^(٢)، أو نجم قرن للضلالة، أو فغرت فاغرة المشركين، قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفى حتى يطاء صماخها بأخمصه، ويخمد لهبها بحده، مكدوداً في ذات الله، قريباً من رسول الله، سيّداً في أولياء الله، وأنتم في رفاهية آمنون وادعون فرحون، فلمّا اختار لنبّيه دار أنبيائه، ظهرت فيكم حسيكة النفاق، وسُمِّلَ جلاببُ الدين ونطق كاظم الغاوين، ونبغ حامل الغافلين، وهدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم، واطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين وللغرة فيه ملاحظين، ثمّ استنهضكم فوجدكم خفاً، وأحمشكم فألفاكم غضاباً.

(١) التوبة: ١٢٨.

(٢) المائدة: ٦٤.

فوسمتم غير إيلكم، وأوردتم غير شربكم، هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لَمَّا يندمل، والرسول لَمَّا يقبر، ابتداراً زعمتم خوف الفتنة، ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾^(١)، فهيئات منكم! وكيف بكم؟ وأنّي تؤفكون؟ وهذا كتاب الله بين أظهركم، فرائضه واضحة، وزواجره لائحة، وشرائعه نيرة، وأعلامه بيّنة.

وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(٢)، أيها المسلمون: أأبتز إرث أبي؟ أفي كتاب أن ترث أباك ولا أرث أبي؟! أفعلى عمد تركتم كتاب الله؟! أولست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟! لعلكم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمّي! أفعلى عمد تركتم كتاب الله، ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾^(٣)، وقال الله ﷻ فيما قصّ من خبر يحيى بن زكريّا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا، يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾^(٤)، وقال عزّ ذكره: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾^(٥)، وقال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِي﴾^(٦)، وقال: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْأَدْنَى وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾^(٧).

وزعمتم أن لا حظوة لي، ولا إرث من أبي... أفخصّكم الله بآيةٍ أخرج أبي منها؟ وقد تجلّى لكم كالشمس الضاحية أنّي ابنته، أو لست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟!

(١) التوبة: ٤٩.

(٢) المائدة: ٥٠.

(٣) النمل: ١٦.

(٤) مريم: ٥-٦.

(٥) الأنفال: ٧٥.

(٦) النساء: ١١.

(٧) البقرة: ١٨٠.

أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي، فيا أيها المسلمون: أغلب على إرثي؟ أفي كتاب الله أن تراث أباك ولا أراث أبي؟! لقد جئت شيئاً فرياً؟ فدونها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرِك، فنعَم الحَكَمُ الله والزعيم محمد والموعود القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، و﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾^(١)، ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُحْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾^(٢).

ثم عدلت إلى مجلس الأنصار فقالت: يا معشر النقية، وأعضاء الملة، وحضنة الإسلام، ما هذه الفترة عن نصرتي، والونية عن معوتي، والغمزة في حقي، والسنة عن ظلامتي! أما كان رسول الله صلوات الله عليه وآله يقول: «المرء يُحفظ في ولده»، سرعان ما أحدثتم فأكدتكم، وعجلان ذا إهالة، أتقولون مات رسول الله! فتلك والله النازلة الكبرى والمصيبة العظمى، لا مثلها نازلة، تقولون مات رسول الله؟ فخطب جليل استوسع وهنه، واستنهر فتقه، وفقد راتقه، وأظلمت الأرض لغيته، واكتأبت خيرة الله لمصرعه، وخشعت الجبال، وأكدت الآمال، وأضيع الحريم، وأذيلت الحرمة، وتلك نازلة أعلن بها كتاب الله في أفنيتمكم، في ممساكم ومصبحكم، يهتف في أسماعكم وقبله حلت بأنبياء الله صلوات الله عليهم ورسله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^(٣).

إيها بني قيلة! أهضم تراث أبي؟! ما هذه الفترة في حقي؟ والسنة عن ظلامتي؟! وأنتم بمرأى مني ومسمع، ومنتدى ومجمع!! تلبسكم الدعوة وتشملكم الخبرة، وأنتم ذوو العدد والعدة والأداة والقوة، وعندكم السلاح والجنة، توافيكم الدعوة فلا

(١) الأنعام: ٦٧.

(٢) هود: ٣٩.

(٣) آل عمران: ١٤٤.

تجبيون، وتأتيكم الصرخة فلا تُغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتُخبت، والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت فباديتهم العرب وناهضتهم الأمم، وكافحتهم البهيم، لا نبرح نامركم فتأتمرون، حتى إذا دارت بنا رحي الإسلام ودرّ حلبُ الأيام، وخضعت نعة الشرك، وسكنت فورة الإفك، وخمدت نيران الكفر، وهدأت دعوة الهرج واستوسق نظام الدين، فأنى حرتم بعد البيان، وأسررتم بعد الإعلان، ونكصتم بعد الإقدام، وأشركتم بعد الإيمان، بؤساً لقوم نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول، وهم بدؤوكم أول مرة، أتخشونهم؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين، ألا قد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض وأبعدتم من هو أحق بالبسط والقبض، وركنتم إلى الدعة ونجوتهم من الضيق بالسعة فمجبجتم ما وعيتهم ودسعتهم الذي تسوّغتم، فإن تكفروا وأنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغنيّ حميد، ألا قد قلت ما قلت على معرفة منّي بالخذلة التي خامرتكم، والغدرة التي استشعرتها قلوبكم، ولكنها قلته فيضة النفس، ونفثة الغيظ، وبثّة الصدر، ومعدرة الحجة، فدو نكموها فاحتقبوها دبرة الظهر، نقبة الخفّ، باقية العار موسومة بغضب الله، وشنار الأبد، موصولة بنار الله الموقدة، التي تطلّع على الأفئدة، فبعين الله ما تفعلون، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(١)، وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فاعملوا ﴿...إِنَّا عَامِلُونَ﴾^(٢) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾^(٣).

(١) الشعراء: ٢٢٧.

(٢) هود: ١٢١-١٢٢.

المقدمة

الحمد لله الذي جلّت أسماؤه، وسمت أوصافه، الذي علّم الإنسان، وشرف العربية بنزول القرآن، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على النبيّ الأمين، الذي فتح أبواب العلم والرحمة للعالمين، وعلى غصن دوحته، وأوّل من صدّق برسالته، وعلى الصديقة الزهراء البتول، وعلى الذريّة الطاهرة، من ولدهم أجمعين.

أمّا بعد فيقال: إنّ خطبة سيّدة النساء كانت قد اختصرت ما جرى بعد رحيل المبعوث رحمة للعالمين، في نصّ مُعدّ أفضل إعداد، ومنظّم أحسن تنظيم، لوقائع جرت في مجتمع المسلمين الأوّل، ثبتت فيه اعتراض بيت النبوة.

وكان لهذه الخطبة أهميّة كبيرة؛ لأنها صدرت من بيت النبوة في لحظة تاريخيّة فاصلة، لحظة الإحساس بالانعطاف الكبيرة بعد رحيله ﷺ، لحظة تصرّف صحابته، وأقرب الناس إليه، وهذا واضح، في قول السيّدة: «أتقولون مات محمد ﷺ... فتلك والله النازلة الكبرى، والمصيبة العظمى، لا مثلها نازلة... ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾»^(١)

إذ تفصّل الخطبة وما يحيط بها عن محنة التغيير، وشدة التداخل والاختلاف، فتعترض السيّدة على آفاق المنهج الجديد الذي بدت ملامح تأسيسه تتضح، وأخذ يفرض وجوده السياسي والإعلامي والاقتصادي، مدعوماً بجهد الدولة الجديدة التي

(١) آل عمران: ١٤٤.

صارت تنحاز بوضوح إلى غير العترة الطاهرة.

ولهذا فالعناية اللغوية والأدبية والنقدية بهذه الخطبة مهمة على مستوى التحليل النصي والاستشهاد الثقافي والاجتماعي، إذ بفهم هذه الخطبة حاجة إلى إعادة نظر من زوايا جديدة، وأدوات معرفية مختلفة، تكشف عن منطقتها وأسرارها وتأويلها وفهمها، بعيداً عن الفروض المسبقة والحماس والسجال؛ لأن النص يظل مفتوحاً قابلاً لأكثر من قراءة، وأكثر من تأويل^(١).

ولا بُدّ في هذا العصر من التخلص من الانغلاق وانسداد الآفاق، وما يسمى بالإقصاء، أو المبالغة في التطرف والخصوصية، إذ إنّ من الإنصاف الاعتراف بحق الوجود للجميع، وحق الرأي، وحق الاختلاف، وحق التناقض والتعايش، والتعامل مع الخصم من منطلق التفهم والتزام الموضوعية، إذ أضحت أهمية الاعتراف بحق الاختلاف مركزية في التواصل المعرفي ووسيلة الحوار والأسلوب الحضاري، ومن ذلك التفكير الجدّي في توسيع دائرة الحوار النقدي وتطوير آلياته، لتشمل موضوعات متعددة ومناطق مختلفة من تراثنا، وخلق آليات عمل مستمرة لتشجيع التلاقي، والتعرف الواسع على الثقافة بعيون الآخرين والمخالفين، فما عاد التعالي والتعصب والتجاهل وحجب الحقائق نافعا في هذا العصر، ولا التعاطي السطحي والتسليم لما يُسمع أو يُتداول من غير القرآن الكريم وما طابقه من الحديث الصحيح الصريح مقبولا، وليس هناك حقيقة مطلقة متفق عليها بين المسلمين غيرهما.

وإنّ رفض مثل نص هذه الخطبة أو التشكيك بوجودها لمجرد مخالفة التيار السائد الذي كُتبت له الغلبة والتدوين الرسمي، يدعو الباحث الجاد إلى الحيرة من جهة، وإلى الإصرار على البحث في مثل هذه الخطبة من جهة أخرى؛ فمن كفالة حق الاختلاف

(١) دراسات في الحجاج: ٤.

التعامل العلمي الجادّ مع نصّ خالد اتصل بمجتمع المسلمين الأوّل، ومن سيّدة النساء، البضعة النبويّة والجهة المصطفويّة، وابنة سيّد الخلق أجمعين، الذي قال ﷺ فيها وفي بعلمها وبنيتها: اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللهم فاذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرا، وقال ﷺ: «إنّ فاطمة سيدة نساء أمتي، وإنّ الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»، وقال ﷺ: «لا يبغيضنا أهل البيت أحد، إلّا أدخله الله النار»، وقال ﷺ: أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة^(١).

ف «لا يُقاس بآل محمد ﷺ من هذه الأمة أحد... هم أساس الدين، وعماد اليقين»^(٢). وإذا كانت الأسطورة أيّة أسطورة تستحقّ الدراسة، وهي متاحة في جميع الآداب العالميّة، ومنها تُستخلص العبر والأفكار، فمن الأولى دراسة كلّ الذي صدر عن أقرب الناس إلى نبيّ الرحمة، ومنها دراسة هذه الخطبة، وهي أوّل خطبة في الإسلام بعد رحيله ﷺ، عدا ما جرى في السقيفة.

فهل من حقّ أحدٍ أن يعترض...؟! وهل من حقّ أحدٍ أن يخفّو أهل البيت؟! لماذا...؟ هذا هو السؤال الكبير والابتلاء العظيم! هذا على الرغم ممّا جاء في القرآن العظيم: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودة في القربى﴾^(٣).

أو يكون الجفاء خوفاً من الحرج في التفكير في مقاصد الخطبة؟

أم من تأمل ما تظهره من حقائق مرّة؟

أو ربّما من احتمال الخوض في مسّ من خالف بنت رسول الله ﷺ، حتى استقرّ

(١) مسند الإمام أحمد: ١/ ٢٤٢، وسير أعلام النبلاء، للذهبي: ٢/ ١١٨، ١٢٧.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١/ ١١٠.

(٣) الشورى ٢٣.

عند متابعي مخالف في أهل البيت أن مجرد ذكر ظلم ظالم من الظالمين أو التبرؤ منه يسيء إلى الإسلام والمسلمين، حتى أضحت (عبارة: فلان يطعن في الصحابة، تكفي للقضاء على كل إبداع بحثي عند أهل السنة، كما تكفي عبارة: فلان يُثني على أعداء أهل البيت، للقضاء على الإبداع نفسه عند الشيعة)^(١).

وهذا التعصب نلمسه عند أتباع المقلدين من الطرفين، الذين يتيهون في التمجيد من غير أدلة صحيحة، وينزهون من أحبوا من أي خطأ من دون تبيين، ويلغون ذواتهم وتفكيرهم، على الرغم من فداحة الخصومة التي ينكرون، وكذلك ما استتبعها من الفتنة والاحتراب، تلك (الفتنة التي وقى الله المسلمين شرّها)^(٢)، الفتنة التي كانت قد صنعت بين المسلمين ما صنعت، حتى صارت تتفاعل وتنمو وتتوالد، لذلك سعى المقلدون إلى منع تداول هذه الخطبة والتغطية عليها، ومقاطعة من ذكرها أو اعتنى بها، ومعاقبته بمنع أعماله، وتضييع ذكره وجهوده، وهذا ما سنعرضه في المبحث القادم.

وهنا لا بُدّ من حديث النفس، ومكاشفة الضمير، واستجلاب وعي المشكلة الحقيقية، والاعتراف بالوقائع وبما حصل، وترك تجاهل الاختلاف، والالتفات إلى مكانة سيّدة النساء السامية التي هي أجلّ وأسمى من أن تُظهِر ما في نفسها من شدة غضب، أو منازعة فيما ليس لها حقّ فيه، أو رغبة بحطام زائل من حطام الدنيا الفانية، وهي المطهرة المخبرة من والدها ﷺ بقرب لحاقها به، فضلاً عن أنها سيّدة نساء العالمين.

فهل يُعقل أن نسلّم لما يتداول ويسود؟

وهذا البحث محاولة متواضعة في تحليل مضمون هذه الخطبة، استناداً إلى لفظ النصّ والموقف والمسار والتوجه والاحتجاج، وسعي في إنضاج الحوار الحضاري

(١) نهاية التحقيق: ١١٨.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٥٥ / ١، وشرح نهج البلاغة: ٢ / ٢٦، ولسان العرب: م / فلت.

لقبول الآخر بما هو عليه وما يعتقده، وتوجه يزعمُ أنه محايد يحترم الخصم والند، ويطلع على ما عنده، بعقل مفتوح، ونزعة إنسانية تبيح الاختيار الفكري، وتبتعد عن الإلغاء والفرض والإجبار، ومن دون صدام أو قتال، إذ إنَّ من أهم شروط النهضة المنشودة الاستناد إلى العلم وتحقيق المساواة، بدءًا من تأمل النصوص المخالفة.

فنرجو أن نسهم في هذا البحث في معرفة أجواء الحوار التي دارت بمدارها هذه الخطبة؛ لأنَّ ما يحيط بنصها من وقائع وغرائز ومنطلقات تثري التحليل النصي، فضلاً عن أنَّ ما قبل النص وما بعده يشي بما يوازيه من أحداث، ويؤكد، ويشهد له، باسترجاعه وإعادة النظر في تأويله، أو قل الفحص الجديد لمضمونه، أو قراءته قراءة حديثة أخرى، وتجليته ممَّا لحق به من خارجه من هوى وغيره، أو أيَّ تأثير تاريخي يغيّر حقيقته، حتى لا يُشوّه تلقّيه أو إنكار ما فيه، فالاسترجاع استنادًا إلى احترام النص مستودع مادّية الدال، وأنَّ الآليات اللغوية هي الكفيلة بفكّ مضمون أسرارهِ؛ لأنَّ المدلول سرٌّ ينبغي البحث عنه في النص الذي قد يفضي إلى تعدّد المعاني.^(١)

وأقول: إذا اختلطت الأمور فاللهم اجعلنا من ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾^(٢)، اللهم ولا تجعل الصدا الذي ران على بعض القلوب أن يتمكن منّا، الصدا الذي يمنع من قبول الصحيح الواضح الصريح المجمع عليه، الذي ربما أخفي لسبب من الأسباب، ولا تُخرِجنا في كلّ الأحوال من دائرة التمسك بمحبّة محمد وآل محمد ﷺ، وجنبنا الإساءة لمقام أيّ هادٍ مهديٍّ من تابعي دعوتهم، ومكنا في بحثنا هذا من معرفة مقام سيّدة النساء، ومن عرض مضامين خطبتها، وتجلية الحقائق المتصلة بها كما هي، فقد أوجبت بعض الواضحات إلى التوضيح والمراجعة، والتفكير في التخلص

(١) آفاق التناصية: ٣٢.

(٢) الزمر: ١٨.

من الاختيار الخاطيء، الذي يفرض على أبناء هذه الأمة بالوسائل والإمكانات المادية والمعنوية لأرباب فكر وعَاطِ السلاطين، ومقالات علمائهم وأمرائهم، ويُغذّي ماكناتهم الإعلامية الكبرى، من الذين يدافعون دفاعاً مستميتاً عن غير أهل البيت، ويعادون طموحات مجتمعاتهم لمصلحة أعدائهم.

التمهيد

في توثيق نص الخطبة والتعريف بمقاصد دراستها

لم يبقَ من التراث العلمي لسيدة النساء إلا النزر اليسير، على الرغم من أنها ابنة صاحب الدعوة وأحبّ الناس إليه، وأنّ القرآن الكريم نزل في بيتها، بيت النبوة المطهر. ويتضح من هذا القليل أنّها كانت التلميذة النجيبة من تلامذة المدرسة القرآنية المباركة، وقد تشرب أسلوب خطابها بأسلوبه، وأنّ ما تتحدّث به كان من نسيجه لفظاً ومعنى ونصّاً، وذلك ما سنعتني به في هذا البحث، ومنه ما تضمنه استدلالها وفهمها وتفسيرها لبعض الآيات الشريفة، التي تظهر مقامها، وكذلك ممّا رُوِيَ عنه ﷺ في حقها «... عن عائشة قالت: اجتمع نساء النبي ﷺ، فلم يغادر منهن امرأة، فجاءت فاطمة تمشي كأنّ مشيتها مشية رسول الله ﷺ، فقال: مرحباً بابنتي، فأجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثمّ أسرّ إليها حديثاً، فبكت فاطمة، ثمّ أنّه سارّها فضحكت أيضاً، فقلت لها: ما يبكيك؟ فقالت: ما كنت لأفشي سرّ رسول الله ﷺ، فقلت: ما رأيت كالיום فرحاً أقرب من حزن! فقلت لها حين بكت: أخصك رسول الله ﷺ بحديث دوننا ثمّ تبكين؟ وسألتهما عمّا قال؟... حتى إذا قبض سألتهما، فقالت: إنه كان يحدثني، إنّ جبرائيل عليه السلام كان يعارض عليه القرآن كلّ عام مرّة، وإنه عارضه في هذا العام مرّتين، ولا أراني إلاّ قد حضر أجلي، وإنّك أوّل أهلي لحوقاً بي، ونعم السلف أنا لك، فبكيْتُ لذلك، ثمّ إنّ سارّني فقال: ألا ترَضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة؟ فضحكتُ لذلك»^(١).

(١) مسند الإمام أحمد: ٦/ ٢٨٢، وصحيح مسلم: ٩٢٣-٩٢٤.

وكان مولد بضعة رسول الله ﷺ قبل المبعث بقليل، وكانت أوّل من لحق به من أهل بيته، ولها ثلاث وعشرون أو أربع وعشرون أو تسع وعشرون سنة^(١)، وقد اختلفوا في مكثها بعده ﷺ، بين خمسة وسبعين يوماً، وقيل: مكثت أربعين ليلة^(٢)، وقيل: (ماتت ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من شهر رمضان، سنة إحدى عشرة... ودفنت ليلاً... قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «ماتت بعد أبيها بثلاثة أشهر»، وعن عائشة، قالت: «كان بين فاطمة وأبيها شهران»^(٣)).

والخطبة التي نحن بصددّها من ذخائر بيت النبوة ومما يحتجّون به، ويحرصون عليه، ومن المحفوظ الشائع المتواتر عنهم، الذي كان قد كُتِبَ له البقاء والاستمرار على الرغم من ملاحقته، ومتابعة من يتفاعل معه، بشهادة ما قرّره أهل العلم والاختصاص مثلاً، سنعرض بعد قليل، ونكرّر أنّ إعادة دراسة مثل هذه النصوص تفضي إلى اكتمال المشهد، واتّضح الحقيقة؛ لأنّ التسليم بالرأي الواحد والحقيقة المطلقة، والازورار عما يخالفها على الرغم من وجوده، يفقد التيار العام نفسه المشروعية الحقّة.

والسيّدة (أشرف ما في المرأة من إنسانيّة وكرامة وعفة وقدااسة ورعاية إلى ما كانت عليه من ذكاء وقّاد، وفطنة حادة، وعلم واسع، وكفاها فخراً أنّها تربّت في مدرسة النبوة، وتخرّجت في معهد الرسالة، وتلقّت عن أبيها الرسول الأمين ما تلقاه عن ربّ العالمين... وصدّقت أم سلمة رضي الله عنها حينما قالت: «... كانت والله أدب منّي، وأعرف بالأشياء كلّها»^(٤)).

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١١٨/٢.

(٢) كتاب قيس بن سليم: ٨٧٠/٢.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٢٨/٢.

(٤) السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام لمحمد بيومي ١٥.

وجاء في كشف الغمّة للاربلي (ت ٦٩٥هـ) في الخطبة: (إنّها من محاسن الخطب وبدايعها، عليها مُسحّة من نور النبوة، وفيها عبقة من أرج الرسالة، وقد أوردتها المؤلف والمخالف).^(١)

وفضاء هذه الخطبة مسجد رسول الله ﷺ، وزمانها بعد وفاة المبعوث رحمة للعالمين، وبعد حادثة السقيفة مباشرة، وأجواء الخطبة هي أجواء نصوص التنزيل المبارك، التي جاء بها الرسول الأعظم ﷺ في القرآن الكريم، أو السنة الشريفة من خطب وغيرها.

والموقف في هذه الخطبة هو الموقف الصعب، موقف تنبيه الأمة على حقوق آل البيت، في ضوء ما كان، والمعني بالخطبة مجتمع صحابة رسول الله ﷺ من الأنصار والمهاجرين، وقد استدعى هذا المقام الخطير التذكير بالثوابت التي جاء بها القرآن الكريم، وصاحب السنّة المطهّرة، وعرض ما جرى من مخالفة لها.

والمتوقّع في هذا المقام الكبير الاستعداد المناسب لمخاطبة العقول والقلوب، وتخيّر أفضل الكلام وأحسنه، والإتيان بما يحقّق المطلوب، وبما يليق بتراث النبوة المشرفة، من ذكر ما قدمته الرسالة المحمدية العظيمة للمخاطبين، وما كانوا عليه، وما صاروا إليه، من مثل نكران ما أغفلوه، واستهجان ما اجترأ على مخالفته.

لذلك اتسمت الخطبة بسمات النصّ المعتمر، ومقام الرفعة والخلود، وقد انطلقت من معين الشريعة المحمدية الخالدة، ومن فكرها الثرّ.

ومن أوائل من أشار إلى الخطبة المباركة التابعي سليم بن قيس الهلالي (ت ٧٦هـ) في كتابه^(٢)، لكن كتابه كان كتاباً مختصراً، اقتصر فيه على الأخبار، فلم يورد سليم

(١) كشف الغمّة للاربلي: ١٠٥/٢.

(٢) كتاب سليم بن قيس ٣٩٠-٣٩١.

الخطبة كاملة، بل عرض مضمونها في أسطر، وفي أكثر من موضع من كتابه، ومن جملة ما ذُكر في هذا الكتاب أخبار السقيفة، واحتجاج الزهراء لإعادة فدك، ومما قال: «إنَّ فاطمة عليها السلام بلغها أنَّ أبا بكر قبض فدك، فخرجت في نساء بني هاشم حتى دخلت على أبي بكر، فقالت: يا أبا بكر، تريد أن تأخذ مني أرضاً جعلها لي رسول الله ﷺ... أما كان قال رسول الله ﷺ: المرء يحفظ في ولده بعده...»^(١)، ومن هذه الأخبار أيضاً «دَخَلْتُ على أبي بكر، فقالت: يا أبا بكر، أتريد أن تأخذ مني أرضاً جعلها لي رسول الله ﷺ... من الوجيف الذي لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب؟ أما كان قال رسول الله ﷺ: المرء يحفظ في ولده بعده؟ وقد علمت أنه لم يترك لولده شيئاً غيرها...»^(٢).

وكان سُليم من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام والإمامين الحسن والحسين عليهما السلام، والإمام زين العابدين عليه السلام، (وكان هارباً من الحجاج؛ لأنه طلبه ليقترله، فلجأ إلى أبان بن أبي عيَّاش، فأواه، فلما حضرته الوفاة قال لأبَّان: إنَّ لك عليَّ حقاً، وقد حضر تني الوفاة، يا بن أخي، إنَّه كان من أمر رسول الله ﷺ، كيت وكيت وأعطاه كتاباً، وهو كتاب سُليم بن قيس الهلالي المشهور، رواه عنه أبان بن أبي عيَّاش (ت ١٣٨هـ)، لم يروه عنه غيره، قال أبان في حديثه: وكان [سليم بن] قيس شيخاً له نورٌ يعلوه وأول كتاب ظهر للشيعة كتاب سُليم بن قيس الهلالي...»^(٣).

ومن كتاب سُليم ما ذكره من كلام أمير المؤمنين وله صلة بمضمون خطبة الزهراء: «والله لقد عملت الأئمة قبلي بأمور عظيمة خالفت فيها رسول الله ﷺ متعمدين، لو

(١) كتاب سُليم بن قيس: ٣٩٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الفهرست، لابن النديم: ٣٦٦.

حملتُ الناس على تركها وتحويلها عن موضعها إلى ما كانت تجري على عهد رسول الله ﷺ لتفرّق جندي عني حتى لا يبقى في عسكري غيري وقليل من شيعتي... لو أمرت بمقام إبراهيم ﷺ فرددته إلى المكان الذي وضعه فيه رسول الله ﷺ، ورددت فذك إلى ورثة فاطمة ﷺ... لنادى بعض الناس... غيرت سنة عمر... حتى خفتُ أن يثوروا في ناحية عسكري^(١)، وذكر كذلك أن أبا بكر وعمر أرادا أن يعودا فاطمة، فطلبها ذلك من الامام علي ﷺ و«قالا: قد كان بيننا وبينها ما قد علمت، فإن رأيت أن تأذن لنا فنتعذر إليها من ذنبنا؟ قال: ذاك إليكما، فقاما فجلسا في الباب، ودخل علي ﷺ على فاطمة ﷺ فقال لها: أيتها الحرة، فلان وفلان بالباب يريدان أن يسلما عليك، فما ترين؟ قالت ﷺ: «البيت بينك والحرة زوجتك، فافعل ما تشاء»، فقال: «شدي قناعك»، فشدت قناعها، وحولت وجهها إلى الحائط، فدخلوا وسلموا وقالوا: ارضي عنا رضي الله عنك، فقالت: «ما دعاكما إلى هذا؟» فقالوا: «اعترفنا بالإساءة، ورجونا أن تعفي عنا وتخرجي سخيمتك»، فقالت: «إن كنتما صادقين فاخبراني عما أسألكما عنه، فإني لا أسألكما عن أمرٍ إلّا وأنا عارفة بأنكما تعلمانه، فإن صدقتما علمت أنكما صادقان في مجيئكما»، قالوا: «سلي عما بدا لك»، قالت: «نشدتكما بالله هل سمعتما رسول الله ﷺ يقول فاطمة بضعة مني، فمن أذاها فقد آذاني؟ قالوا: نعم، فرفعت يدها إلى السماء فقالت: اللهم إنهما قد آذيانِي، فأنا أشكوهما إليك وإلى رسولك، لا والله لا أرضى عنكما أبداً، حتى ألقى أبي رسول الله وأخبره بما صنعتما، فيكون الحاكم فيكما»^(٢).

ومن جملة من يُذكر أنّه نقل خطبة الزهراء، لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم الأزدي الكوفي (ت ١٥٧هـ)، المعروف بأبي مخنف، كان والده من أصحاب الأئمة

(١) كتاب سليم بن قيس ٢٦٢-٢٦٤.

(٢) كتاب سليم بن قيس ٣٩٢ ٣٩١.

الأطهار، روى عن النبي ﷺ وعن أصحابه، عن الإمام الصادق عليه السلام، وصنّف الكثير من الكتب ومنها: كتاب الردة، وكتاب فتوح الشام، وكتاب فتوح العراق، وكتاب الجمل، وكتاب صفين، وكتاب أهل النهروان والخوارج، وكتاب مقتل علي عليه السلام، وكتاب مقتل حجر بن عديّ وكتاب مقتل الحسين عليه السلام، وكتاب المختار بن عُبيد، وكتاب زيد بن علي عليه السلام، وكتاب يحيى بن زيد وغيرها كثير، لكنها ضاعت أو ضيّعت ومنها خطبة الزهراء^(١).

وكذلك نقل الخطبة أبو الفضل أحمد بن طيفور البغدادي (٢٠٤-٢٨٠هـ)، في كتاب (بلاغات النساء)، والذي اعتنى بتوثيقها؛ إذ ذكر طريقين لروايتها، الأول: الحسن بن علوان، عن عطية العوفي أنّه سمع عبد الله بن الحسن يذكره عن أبيه الحسن عليه السلام، والثاني: موسى بن عيسى، قال: حدثنا عبد الله بن يونس قال أخبرنا جعفر الأحمر، عن زيد بن علي عليه السلام، عن عمته زينب بنت الحسين عليه السلام، وكان ابن طيفور نفسه قد ذكر ردّ زيد بن علي بن الحسين بن أبي طالب عليه السلام، على من زعم أن كلامها عليه السلام البليغ مصنوع، وأنّه من كلام أبي العيناء، قال زيد: «رأيت مشايخ آل أبي طالب يروونه عن آبائهم، ويعلمونه أولاهم، وقد حدّثني أبي عن جدّي يبلغ به فاطمة عليها السلام، على هذه الحكاية، ورواه مشايخ الشيعة وتدارسوه بينهم، قبل أن يولد جدّ أبي العيناء، وقد حدّث به الحسن بن علوان عن عطية العوفي أنّه سمع عبد الله بن الحسن يذكره عن أبيه، ثمّ قال: ... وكيف يذكر هذا من كلام فاطمة فينكرونه وهم يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هو أعجب من كلام فاطمة...»^(٢)، وقد عرض صاحب كتاب (بلاغات النساء) نفسه خطب عائشة في فضائل أبيها قبل خطبة

(١) الفهرست: ١٤٨-١٤٩، ومعجم رجال الحديث: ١٥/١٤١ ١٤٢.

(٢) بلاغات النساء: ١٦، ١٩.

الزهاء، ومنها خطبتها في البصرة في الطلب بدم عثمان، وكذلك حوارها مع أبي الأسود الدؤلي (ت ٦٩هـ) بشأن خروجها مع طلحة والزبير، وخطبتها لما بلغها قتل عثمان...^(١)

والخطبة التي نحن بصدددها في (كتاب السقيفة وفدك)، لأبي بكر أحمد بن العزيز الجوهري البصري (ت ٣٢٣هـ)، الذي كان كتابه متداولاً موجوداً في القرن السابع الهجري، إلا أنه فقد بعد هذا التاريخ... وكان لدى ابن أبي الحديد (ت ٦٥٥هـ) نسخة منه ونقله علي بن عيسى الأربلي (ت ٦٩٣هـ)، عن نسخة قديمة مقروءة على مؤلفها سنة (٣٢٢هـ)، أي قبل سنة من وفاته، ويُذكر أن الجوهري كان قد تلقى الخطبة عن أربعة طرق، تنتهي بأولاد فاطمة عليها السلام: عند زينب بنت فاطمة عليها السلام، وعبد الله بن حسن بن الحسن عليهما السلام، وجعفر بن محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام عن أبيه عليه السلام.^(٢)

قال المحقق الذي جمع كتاب (السقيفة وفدك) من الكتب الأخرى، بعد أن ضاعت مخطوطاته، أو ربّما ضيّعت: «كأنّ التاريخ أهمل هذا العالم المُحدّث، مع وفور علمه وجهاده الفكري، وألقاه في زاوية الخمول والنسيان، فلن يتوجه نحوه أصحاب المعاجم، ولم يتقرّب إلى حوزته رجال البحث والتحقيق... لعلّ كتابه هذا كان الباعث في خموله وخموده»^(٣)، فعلى سبيل المثال أهمل ترجمته ابن حجر على الرغم من أنه ذكره في الحديث عن الرواة عن عمر بن شبة (ت ٢٦٢هـ).^(٤)

ويقول المحقق أيضاً إنّ المؤلّف: «جمع في كتابه أحاديث وروايات مخالفة للشريعة الإمامية... ومباينة لمعتقداتها الإسلامية الصريحة الواضحة... ودون أن يتناول الحديث

(١) بلاغات النساء ٣-١٤.

(٢) مقدّمة محقق كتاب السقيفة وفدك: ٢٧-٢٨، وكشف الغمّة: ١٠٨/٢.

(٣) السقيفة وفدك: ٢٦.

(٤) السقيفة وفدك: ٢٠-٢٦، وتهذيب التهذيب: ٤٠٥/٧.

أو الرواية بالنقاش والردّ... فهو إذن من علماء السنّة ولا شكّ في ذلك... إلّا أنّ ذكر أحاديث وأخبار موافقة لمفاهيم الشيعة لم يكن دليلاً على تشييع الرجل... كما أنّ مشايخه، ليس فيهم من عرّف بالتشييع، أو كان شيعياً حتى يظهر أثره في نفس الجوهريّ بوضوح... ولم أجد للتشييع أيّ أثر»^(١).

ومن مصادر الخطبة ما خصصه الشريف المرتضى (٣٥٥-٤٣٦هـ) في فصل كامل من كتابه (الشافي في الإمامة) وفيه النقض على كتاب المغني للقاضي عبد الجبار في الخلاف في ميراث النبي ﷺ، ومن ذلك قول المرتضى نفسه بعد عرض الحجج المتقابلة بين الطرفين: «استوت الأسباب، والرجوع إلى أصل حكم الله في الميراث أولى... ولكنهما [أي الأول والثاني] بعد إقرارهما بحكم الميراث، وما عليه الظاهر من الشريعة ادّعيا رواية، وتحديثاً بحديث لم يكن بمحال كونه، ولا يمتنع في حجج العقول مجيئه، وشهدا لهما عليه من علته مثل علتها فيه، ولعل بعضهم كان يرى التصديق للرجل إذا كان عدلاً في رهطه، مأموناً في ظاهره، ولم يكن قبل ذلك عرف بفجره... فيكون تصديقه له على جهة حسن الظنّ... ولم يكن كثير منهم يعرف حقائق الحجج، والذي يقطع بشهادته على الغيب، وكان ذلك شبهة على أكثرهم، فلذلك قلّ النكير، وتواكل الناس واشتبه الأمر، فصار لا يُتخلص إلى معرفة حقّ من باطله إلّا العالم المتقدم، والمؤيد المسترشد... والعجب أنا وجدنا... إذا صاروا إلى القول في ميراث النبي ﷺ نسخوا الكتاب، وخصّوا الخبر العام... وذلك أنّ كلّ إنسان منهم يجري إلى هواه ويصدّق ما وافق رضاه»^(٢)، ونقل ابن أبي الحديد أيضاً توثيق الخطبة عن قول «المرتضى: أخبرنا أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المربانيّ (ت ٣٨٤هـ)، قال: حدثني عليّ بن

(١) السقيفة وفدك: ٣٣.

(٢) الشافي في الإمامة: ٤ / ٨٦ ٨٩.

هارون، قال أخبرني عبيد الله بن أحمد بن أبي طاهر، عن أبيه قال: ذكرت لأبي الحسين زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام كلام فاطمة عليها السلام عند منع أبي بكر إياها فذكرت له: إن هؤلاء يزعمون أنه مصنوع، وأنه من كلام أبي العيلاء؛ لأنه كلام منسوق البلاغة، فقال لي: رأيت مشايخ آل أبي طالب يروونه عن آبائهم ويعلمونه أولادهم...»^(١) وهذا هو نفسه ما نقلناه عن بلاغات النساء قبل قليل.

ونخلص إلى أن الخطبة تُروى عن ورثة الزهراء عليها السلام وعمّن اتصل بها، من الذين كانوا قد رووها أو حفظوها عنها جيلاً بعد جيل، ولاسيما قبل مرحلة تدوين العلوم منتصف القرن الثاني الهجري؛ لأن فيها ما يثبت مكانة أهل البيت وحقوقهم، وهذا ما جاء عن:

١. زينب بنت علي بن أبي طالب عليها السلام: عن طريق أبي عبد الله جعفر بن زياد الأحمر الكوفي (ت ١٦٧ هـ) الذي أخذه عن زيد بن عليّ الشهيد عن عمته زينب عن أمها فاطمة، وقد وثّق الأحمر الخطيبُ البغدادي، وابن أبي شيبه.^(٢)

٢. أبي جعفر محمد بن عليّ الباقر عليه السلام (١١٤ هـ): عن طريق عثمان بن عمران الجعفي، عن نائل بن نجیح بن عمير بن شمر، عن أبي عبد الله جابر بن يزيد الجعفي التابعي الكوفي (ت ١٢٨ هـ)، عن الباقر عليه السلام.^(٣)

٣. عبد الله المحض بن الحسن المثنى (ت ١٤٥ هـ)، بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام: عن طريق أبي نصر أحمد بن محمد بن يزيد بن عبد الرحمن البخاري، عن عبد الله بن محمد بن سليمان، عن أبيه، عن أبي محمد عبد الله المحض بن الحسن المثنى وأمه

(١) شرح نهج البلاغة: ١٦/٣٧٣، والشافي في الإمامة: ٤/٥٧ و٩٦.

(٢) أعيان الشيعة: ٢/٤٦٦-٤٦٧، وتاريخ بغداد: ٧/١٦١-١٦٢، والمصنف: ٧/١٦٣.

(٣) السقيفة وفدك: ١٠٠، وينظر: الاحتجاج: ١/١٣٢.

فاطمة بنت الحسين عليه السلام، وسُمِّيَ بالمحض لأنه كان يُشَبَّهُ برسول الله ﷺ، وكان شيخ بني هاشم في زمانه، قتله أبو جعفر. ^(١)

٤. أبي عبد الله الصادق عليه السلام (ت ١٤٨هـ) عن أبيه عن جدّه: عن طريق أبان بن عثمان بن يحيى اللؤلؤي الأحمر التابعي (ت ١٤٠هـ) وهو أستاذ أبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٩هـ)، ومن أصحاب جعفر الصادق عليه السلام. ^(٢)

٥ عائشة: عن طريق أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني (٣٨٤هـ) صاحب الموسّح، من تلامذة الجوهري ^(٣)، قال أبو عبد الله المرزباني (الإمام من أئمة الأدب، والشيخ من شيوخ المعتزلة، والعلم من أعلام الرواية، وشيخ المرتضى): قال حدثنا محمد بن أحمد الكاتب، حدثنا أحمد بن عبيد بن ناصح النحوي، حدثنا الزنادي، حدثنا شرقي بن قطامي، عن محمد بن إسحاق، قال: حدثنا صالح بن كيسان، عن عروة، عن عائشة، قالت لما بلغ فاطمة إجماع أبي بكر على منعها فذك. ^(٤)

أخبرنا أبو نعيم عبد الله بن أسحاق الأصبهاني، عن صالح بن كيسان، عن الزهري، عن عروة عن عائشة. ^(٥)

ولو استعنا بفحص شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي (٦٥٦هـ) للوثائق المختلفة عن خطبة سيدة الإسلام، وما بذله في البحث في الأخبار والسير المنقولة من أفواه أهل الحديث وكتبهم، والذي صرح بتجنب كتب الشيعة ورجالهم، وأنّ أسانيده التي

(١) السقيفة وفذك: ١٠٠، والاحتجاج: ١/ ١٣٢.

(٢) بغية الوعاة للسيوطي: ١/ ٣٣٤.

(٣) الفهرست: ٢١١، والسقيفة وفذك: ٧ و ٢٢.

(٤) شرح خطبة الزهراء، للمجلسي: ٣٠-٣١.

(٥) المناقب، لابن مردويه: ٩٦.

أوردها لهذه الخطبة ليست مأخوذة من أي من كتب الشيعة، نكون قد أخذنا بالمواقف التي لا تُتهم بالانحياز أو الهوى أو الميل، فممن اعتمد عليه ابن أبي الحديد: (كتاب أبي بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في (السقيفة وفدك) [الذي نوّهنا عنه قبل قليل]، وما وقع من الاختلاف والاضطراب عقب وفاة النبي ﷺ، وأبو بكر الجوهري هذا عالم محدث كثير الأدب، ثقة ورع، أثنى عليه المحدثون ورووا عنه مصنفاته... قال: حدثني محمد بن زكريا، قال حدثني جعفر بن محمد بن عمارة الكندي، قال: حدثني أبي، عن الحسين بن صالح بن حي، قال حدثني رجلان من بني هاشم عن زينب بنت علي بن أبي طالب عليها السلام. ويصرح قائلاً: ثم يشير إلى كتاب السقيفة لأبي بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري الذي يعدّ واحداً من كبار محدّثي أهل السنّة، بأنه نقل هذه الخطبة في كتابه من عدّة طرق في شرح نهج البلاغة).^(١)

والملفت أنّ اهتمام علماء السنّة بالخطبة لا يقلّ عن اهتمام غيرهم، لكنّ محاولات إبعاد الخطبة عن التداول عند بعضهم واضحة، وكذلك الغصّ من مكانة العلماء الذين اعتنوا بها بتضييع ما تركوه من جهود ملموسة، ولاسيما ما تركه أبو بكر أحمد بن العزيز الجوهري البصري، وأبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه الأصفهاني (ت ٤١٠ هـ) مؤلف كتاب (مناقب علي بن أبي طالب، وما نزل من القرآن في علي)، وغيرهما.

ولا بأس من ذكر أبرز من أشار إلى الخطبة أو انتهت إليه الروايات من غير ما تقدّم، بحسب التسلسل التاريخي، إذ إنّ نصّ الخطبة معروف في:

مروج الذهب وأخبار الزمان، للمسعودي (ت ٣٤٦ هـ).

والأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ).

(١) شرح نهج البلاغة: ٣٤٤/١٦، والزهراء سيّدة نساء العالمين، مكارم شيرازي: ١٠٥.

وعلى الشرايع ومعاني الأخبار، الصدوق (ت ٣٨١هـ).
والأمالي، للمفيد (ت ٤١٣هـ).
ودلائل الإمامة، لمحمد بن جرير بن رستم الطبري (نهاية القرن الرابع).
والزنجشيري (٥٣٨هـ) في كتابه الفائق في الحديث [مادة: لم وهنبثة].
والخوارزمي (ت ٥٦٨هـ) [مقتل الإمام الحسين ١ / ٧٧ - ٧٨].
وتذكرة خواص الأمة، للسبط ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ).
والاحتجاج، لأحمد بن أبي طالب الطبرسي (ت ٦٢٠هـ).
ومنال الطالب في شرح طوال الغرائب لابن الأثير [٢ / ٥٠٢].
ومن رواة الخطبة أو ممن ذكروها أو ذكروا بعضها:
ابن منظور (ت ٧١١هـ)، [لسان العرب م: لم وهنبث].
والسيوطي (٩١١هـ) [في اللآلئ الموضوعة في الأحاديث الموضوعة].
والمجلسي (ت ١١١١هـ)، في بحار الأنوار، عرض كامل الخطبة.
ومحمد مرتضى الزبيدي (١٢٠٥هـ)، [تاج العروس م: لم وهنبث].
وعمر رضا كحالة [أعلام النساء ص ٤ / ١٢٢ - ١٢٥] نقل الخطبة.
والأستاذ أحمد حسين يعقوب، في الخطط الإسلامية لتوحيد الأمة نقل أكثر أجزاء
الخطبة.

ومن العجب أن لا يتورّع بعضهم في التعامل مع أحب الناس إلى رسول الله ﷺ،
ومن نورها الله بنور النبوة، وعبق أريج الرسالة، ولا يلحظ مقام بضعة الرسول

من والدها الذي أُوتِيَ جوامع الكلم، وأفصح من نطق بالضاد، وابنة أفضل أمّهات المؤمنين، وحليّة صاحب البلاغة ومنهجها، ولاسيما حين يَستَكثِرُ على السيّدة بلاغة الخطاب وقوّة بيانه؟!

فهل يحقّ لبعض الألسنة والأقلام أن تطول، وتصول، وتجول في الافتئات والتشكيك في نصّ هذه الخطبة، أو مضمونها... ، انطلاقاً من هوى ومن دون دليل.

ونقول في هذا المقام: إنّ فتح باب التشكيك الواسع على النصوص المُسلّم بصدورها وتواترها، سوف يضرّ بكلّ التراث العربيّ الإسلاميّ، ويعمّ جميع ما صدر، ولن نستطيع أن نضع أيدينا على الحقائق المُسلّم بها ولاسيما ما تعارف عليه السلف، وعند ذاك لا يَسَلَمُ نصّ من النصوص من الطعن والتوهين، ولا بُدَّ أن يُطالَبَ المُشكِّكُ «أيّ مشكك» بالدليل، لا مجرّد الدعوى والطعن بما هوت النفوس.

وقد حوت الأخبار المتصلة بالخطبة ما يدافع عن المعنيتين بها، فضلاً عن الأحداث المؤثقة المعروفة المتصلة بها، والمتداولة عند أجيال متعاقبة منذ الجيل الإسلاميّ الأوّل، إذ حَفِظَتْ صدور الجيل الأوّل من بعد الزهراء من أهل بيت النبوة وغيرهم هذه الخطبة، وكانوا يُحَفِّظُونَهَا لمن جاء من بعدهم، إلى أن اتسع التدوين، وتوثقت بالمكتوب والنشر والإشاعة بين عامّة الناس مثلما عرضنا.

أهم مقاصد دراسة الخطبة

ومن مرامي هذا البحث: القراءة الحاذقة، والدراسة المتأنية التي تتيح لورثة أمجاد هذه اللغة، من المعتنين بعلموها الإحساس بنبض ما عُرض في هذه الخطبة من بناء لفظي ومفهومي، وتفحص ما فيها من أفكار قديمة جديدة، وكذلك لحظ المظاهر التفاعلية في زمانها مع النصوص الأخرى، من التي تعيد للتراث وهجته ومكانته، وللغة شرفها وسموها وجمال فنونها، فضلاً عن إظهار الدلالات القريبة مما أراده النص المبارك نفسه، ومما يقاربه، أو يوازيه ومما هو أعلى منه أو أدنى، وتحديد هويته، وخصوصيته، وأثره المتجدد في متلقيه.

ونرجح ضرورة (إدراج الدين في الحداثة وإدراج الحداثة في الدين، وذلك باستخدام مكتسبات علوم الإنسان الفرعية المتعددة والمتشابكة... ولا بد من التخلص من سيطرة المفاهيم التي ترتبط بالأيديولوجية السياسية الداعية إليها...) ^(١)، أي استخدام ما وصلت إليه العلوم من تطور في تدعيم الدراسات والبحوث المتعلقة بالدين، وهنا في بحثنا هذا نحبذ استخدام ما وصلت إليه الدراسات اللغوية الحديثة واستثمارها في دراسة الخطبة وتفكيكها وتحليلها.. لنستشف منها أكثر ما يمكن ادراكه فنصل الى فهم اكثر بها..

ف(صفحات الماضي... نور يعيش فينا، ويجعلنا نعيش في اتصال وثيق بتلك التراكمات والأحداث، التي تمثل شيئاً معنوياً من كياننا وحضورنا، لذا فإن هذه المسافة

(١) اللسانيات وتحليل النصوص: ٢٧٨.

لا يمكن أن نتجاوزها باعتبارها ماضيًا، وإنما هي اتصال حيّ يضع المسائل الغائبة من التراث في متناولنا للكشف عن قضايا جوهرية في عملية الفهم والتأويل في نص أو وثيقة مكتوبة تحمل مسائل تحتاج إلى فهم أو إعادة فهم الوعي التاريخي الذي لم يعد مشروعًا حرًا... فبدون العملية التطهيرية التي تجسد النور الذي نتلقاه من الوعي التاريخي، والذي لا يُعدّ سوى نور محجوب، بدون هذا التطهير لا تكون معارفنا نحو (الآخر) سوى افتراضات طريقة معرفية تقتضي أحكامًا مسبقة، افتراضات وأفكار متصورة حول المنهج وحول ما ينبغي أن يكون عليه المعطى التاريخي، تستوي التجربة وتؤدي حتمًا إلى غدر كل ما بإمكانه أن يكون هو الآخر... عندما نتلقى رسالة ما، قد نرى فحواها بأعين المرسل الذي أراد تبليغ تلك الأشياء إلينا بأعينه هو، ولكن ذلك ليس اعتقاده الشخصي... لا نستبعد إمكانية أن النص المتداول ينسجم مع الشيء نفسه الذي تنسجه افتراضاتنا الخاصة... خيبة الأمل أن نترك النص يتكلم وحده لا نبليغ من خلاله إلى نتيجة حرفية تدفعنا إلى محاولة فهمه من وجهة نظر نفسية أو تاريخية.^(١)

وطالب الحقيقة لابد أن يلم بجميع الآراء والتوجهات، وأن يعي أن حركة التاريخ إما أن تصنعنا ككائنات تاريخية، أو نصنع نحن التاريخ بإرادة الفهم.^(٢)

ونقول: إن أهمية وعي مضامين هذه الخطبة يتجاوز التمدب والسياسة أو ما لحقها من أحداث التاريخ، والوقوف على الاعتراض الذي كان شاهدًا على التحول الثقافي والاجتماعي...، والعدول عما كان يؤسس من سلطة في حينها.

ولابد أيضًا من إدراك ما يرتبط بالخلاف ارتباطاً وثيقاً، وعلى المتصدّي أن ينظر إلى الرأيين قبل أن يتخذ أي موقف منهما، لكن قد يستنكر بعض متوسطي الثقافة وجود

(١) آليات التأويل: ٤٤ - ٤٥.

(٢) م. س ٤١.

الآخر نتيجة لفعالية ما أُسّس من تجهيل عبر أجيال وأجيال، من التي تعترض وتشكك فيما يصدر عن أهل البيت، وتسلم للآخر الذي يخالفهم.

ولابدّ من كشف أسباب الفرقة الحقيقية، واصطدام المضمون المعرفي لتلك الخطبة بذلك المجتمع، الذي ارتضى فيما بعد بظهور طبقة جديدة ذات سلطة ونفوذ، حتى صارت هذه السلطة تفخرُ بمثل (الخطبة البتراء) لزياد بن أبيه، الخطبة التي يُجَاهِر فيها زيادُ بأخذ البريء بجريرة السقيم، وتحتفي هذه السلطة بلاغياً بمثل خطبة الحجاج بن يوسف الثقفي في التهديد بقطع الرؤوس لمن يخالف رأيه، في قوله: «إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها!»^(١)، وقوله أيضاً: «والله لو أمرتكم أن تخرجوا من هذا الباب فخرجتم من هذا حلّت لي دماؤكم»^(٢)، وقد أسّست السلطة نفسها لتغيير منهج التسامح والعدل والتأمل والتفكير، وساعدها تذبذب فئات المخاطبين وخنوعهم، وعدم استقرارهم على المدار الفكري والمعرفي لمثل خطبة سيّدة النساء، وكذلك تمكنت هذه السلطة من التزييف والتسطيح والتعظيم وتكميم الأفواه، والتأثير حتى في الأدوات المعرفية للأعصر اللاحقة، حتى انتهت إلى عصرنا هذا، وأستشهد لما سبق برأي أستاذٍ يصفُ (ضياغَ جهود جيل بأكمله من الباحثين يقتصرون على تناول القشور والتفاهات، التي تملأ الكتب الجامعية، ومجلات البحث الأكاديمي في الآداب والعلوم الإنسانية التي لا تُستخدم لغير أغراض الترقية... ورقابة بالمرصاد... وانهباء القيم تحت مطرقة الوقائع الهازئة من سذاجة الشعارات والمشروعات الثائرة على عجز البرامج وقصور النظريات... والتلهي بقضايا ثانوية لا تمس المسكوت عنه على ستر العاري الكياني.... عورات نظم التجريم والتحريم والتكفير والحجر والتطفيل... [و]

(١) البداية والنهاية: ٧/٩.

(٢) الكامل في التاريخ: ٥٨٦/٤.

غزارة إنتاج الكتب الدينية التي تحجّر وتجزم وتكفر وتطمس جذوة الحياة... ويتدخل الذين نصبوا أنفسهم حماة للدين والوطن، والأوصياء على عقول الناس، والمعوقون فكرياً وحراس المعابد لمصادرة الكتب والإنتاج الفكري والثقافي ومحاربتة بالشبهة، وإطلاق تهم خيانة الوطن والتكفير والمساس بالعفاف والأخلاق... وبهذا تهدر القضايا الكبرى ويهمش الناس^(١).

وندعو هنا إلى:

١. رؤية منهجية تباعد عن المعايير غير العلميّة، وتتجنب مجرد المدح أو الذم.
٢. موضوعيّة علمية لتحديد هوية هذا النصّ المفصلي في حياة الأمة، والتعريف بما كان كما كان، والذي يمكن أن يكون الأساس في وعي ما حدث، وعياً يناسب هذا العصر.
٣. الكشف عن السمات النصّية العامة، بالاستفادة من علم لغة النصّ وغيره.
٤. الخصوصية وكشفها باستعمال عناصر تحليل قديمة وحديثة.
٥. خصوصية الخطبة، في إظهار ما كان يدور فعلاً، ووصف ما حصل سياسياً واجتماعياً، وإظهار الربط بين المتكلم والمخاطب وفحوى الخطاب.
٦. فهم يتجاوز الأطر الثقافية والتصورات المشوّشة التي ربما استقرت غلطاً في ذاكرة الأفراد وتجاربهم، وأسهمت في تشتت أفهامهم نتيجة التأويلات المتضاربة.
٧. وعي الملابس التي تكتنف النصّ، وسياق الموقف في التردّد أو الشكّ أو اليقين حين إنتاجه وعند تلقيه.

(١) اللسانيات وتحليل النصوص: ٢٣٦-٤٠٣٩.

٨. إشاعة أجواء الحوار وتحكيم العقل^(١)؛ لأنّ الأساس هو التأكّد من الدليل والمعلومة، لا التسليم إلى الحبّ والبغض وتقديس هذا الطرف أو ذاك، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾^(٢)، فالمطلوب هو كبح جماح خبث النفوس، ومنع الاحتجاج بالهوى، وتجنب الخصام، والضغائن والعصبيّة، وسماع الآخر لا المسارعة إلى تكذيبه من دون تبيّن.

(١) نحو النصّ بين الأصالة والحدّثة: ١٩.

(٢) سورة الحجرات: آية ٦.



الفصل الأول

مقاطع الخطبة السبعة

مقاطع الخطبة السبعة

يَدُلُّ التقطيع المناسب على توافق معمار كل جزء من هذه الأجزاء، وعلى قصد تنويع الخطاب بحسب مضامين الفقرات، والتقطيع المتقارب لأقسامها أو وحداتها، بالنظر إلى مضامينها، في توافقها أو تخالفها.

والنصّ عبارة عن فقرات متتابعة في البناء النصّي من دون فاصل يفصلها، (فكل فقرة تحوي موضوعاً واحداً متميّزاً عما سبقه من مواضيع من جهة، وعمّا لحقه منها من جهة ثانية، هذا التمايز هو الذي سمح بالحكم المبدئي على متتالية جمليّة بأنها فقرة مستقلة... وإنّ الفقرة ما هي إلّا متتاليات جمليّة).^(١)

فكانت مضامين محاور الخطبة موزعة على سبعة مقاطع أو فقرات^(٢)، هي:

١. مقطع الافتتاح، وقد تضمّن أجواء ما قبل الخطبة وما أحاط بها، ثمّ عُرِضَ مختصرٌ مسائل التوحيد، واصطفاء المبعوث رحمة للعالمين، والتذكير بمنزلته السامية وصفاته ومسؤولياته وجهاده (وتحوّله من التعب والجهاد في الحياة الدنيا إلى النعيم والرضوان والاطمئنان) في الآخرة.

٢. مقطع التذكير بدوام التكليف بعده ﷺ.

٣. مقطع علل التشريع.

(١) نحو النص، د. أبو خزيمة: ١١٨.

(٢) الزهراء سيدة نساء العالمين، ناصر مكارم الشيرازي: ١٠٨ - ١٠٩.

٤. مقطع التعريف بمكانة سيّدة النساء.

٥. مقطع المخاطبين والفتنة الكبرى.

٦. مقطع الإرث وحجج الوراثة.

٧. مقطع استنصار الأنصار.

المقطع الأول: مقطع الافتتاح

رافق رواية الخطبة الكاملة عند جميع الرواة وصف هيئة خروج السيدة ومن رافقها إلى المسجد الشريف، واستقرارها فيه؛ ذلك لأهميّة حدث الخطبة وخطورتها، ممّا أوجب العناية بما أحاط بنصّها، على الرغم من تقادم الزمن، وتقاذف الأحداث، وتضاferها في المبالغة في إبعاد آل البيت عليهم السلام، والتنكّر لمقاماتهم، فكان ردّ الفعل المقاوم بتجاوز الاهتمام بالنصّ إلى ما يتصل بهيأة الخروج، والاستقرار في المجلس، وكذلك تشبيه مشية السيّدة بمشية أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله، فضلاً عن ذكر من كان معها في ذهابها إلى المسجد، وماذا وضعوا من حواجز بينها وبين المخاطبين... فقد أسهم هذا الاهتمام في العناية بموكب السيدة، والتركيز الإعلامي على ذكر التفاصيل.

فكان من ضمن مقطع الافتتاح تدوين مشهد التهيؤ والوصول والاستقرار، وارتجاج المجلس لما كان من الأثّة التي كانت قد أنّتها بعد الاستقرار، إذ ذكروا: «فلما أجمع على منع فاطمة عليها السلام فدكّا، وبلغها ذلك لاثت خمارها، وخرجت في نساء من بني هاشم»^(١).

على أنّ رواية الخطبة ابتدأت شفاهيّة كغيرها محفوظة في الصدور قبل مرحلة التدوين، وقد جاءت بنصّين، نصّ طويل وآخر حُذِف منه بعض الأجزاء، وهناك

(١) كتاب سليم بن قيس: ٣٩٠، بلاغات النساء: ١٦، السقيفة وفدك للجوهري: ١١٠.

اختلاف يسير بين النصوص المروية كالتقديم والتأخير، أو تغيير الكلمة بما يُرادفها، وقد ذكر جميع رواة الخطبة شيئاً مما حصل قبلها، ثمّ مقطع افتتاحها.

النص: «لما بلغ فاطمة عليها السلام إجماع أبي بكر على منعها فذك، لاثت خمارها، واشتملت بجلبابها، وأقبلت في لمةٍ من حفدتها ونساء قومها، تطأ في ذيولها، ما تحرم مشيتها مشية رسول الله ﷺ شيئاً، حتى دخلت على أبي بكر، وقد حشد حوله الناس من المهاجرين والأنصار، فضرب بينها وبينهم رِيطة بيضاء...»^(١).

وكان قد عَلِمَ بمجيئها، فهيّا الجمع ليكونوا معه وليس عليه.^(٢)

فاللمّة: الجماعة [واللفظة نفسها مستعملة بالمعنى نفسه في العامية العراقية وغيرها لكن بنطق مختلف قليلاً لَمّة بدلاً من لُمة]؛ قال ابن منظور: «في حديث فاطمة عليها السلام، أنها خرجت في لُمة من نسائها، تتوطأ ذيلها إلى أبي بكر فعاتبته، أي في جماعة من نسائها، قال ابن الأثير: اللّمة المثل في السنّ والترّب»^(٣)، أمّا عدد اللّمة فمن غير حصر، أو ما بين الثلاثة والعشرة، وقيل اللّمة لمثل السنّ والترّب^(٤).

«ما تحرم مشيتها مشية رسول الله» أي ما تنقص، فلا تفاوت أو نقص في الحياة والصفة، ولا فرق.

«ثمّ أنّت أنّه أجهد لها القوم بالبكاء، وارتجّ المجلس، فأمهلت [هنيهة] حتى سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم»^(٥)،

(١) شرح نهج البلاغة: ١٦ / ٣٤٥، وينظر: بلاغات النساء: ١٦، والمناقب لابن مردويه: ٢٠٢.

(٢) جامع الأخبار الفاطمية: ٤٨ / ٧.

(٣) لسان العرب م / لم ٥ / ٤٠٧٧.

(٤) م. س.

(٥) بلاغات النساء ١٦.

«ولم يُرَ الناسُ أكثرَ باكٍ ولا باكيةً منهم يومئذٍ»^(١).

وَأَنْتِ أَنْتِ: تَأَوَّهْتَ، ثُمَّ أَمَهَلْتَ هُنِيَّةً أَوْ هُنِيَّةً [أَظْنَهَا مِنَ التَّصْحِيفِ]: هُنِيَّةٌ تَصْغِيرٌ هُنَّةٌ أَوْ هُنُوءٌ: الْيَسِيرُ مِنَ الْوَقْتِ.^(٢)

وَفِي الْآيَةِ بَدْءٌ مُوَفَّقٌ جَمَعَتْ بِهَا الْمُخَاطَبِينَ إِلَى مَا تُرِيدُ؛ لِأَنَّ التَّظْلِمَ وَالْمَوَاقِفَ الْمُؤَلَّةَ تَوْثُرُ وَجْدَانِيًّا فِي الْمُخَاطَبِينَ، وَتُضْمَنُ مِشَارَكَتَهُمْ فِي الْحُزَنِ الْمَوْحِدِ، وَلَا سِيَّمَا فِي أَجْوَاءِ تِلْكَ الْمَصِيبَةِ الْكُبْرَى.

(ارْتَجَّ الْمَجْلِسُ): اضْطَرَبَ.^(٣)

(حَتَّى إِذَا سَكَنَ نَشِيجَ الْقَوْمِ): نَشَجَ الْبَاكِى غَصَّ بِالْبَكَاءِ، إِذَا رَدَّدَ صَوْتَهُ فِي صَدْرِهِ، فِي نَحِيبٍ وَتَوَجَّعَ.^(٤)

وَفِي هَذَا تَمْهِيدٌ لِمُتَجَلِّبِ الْمِشَارَكَةِ الْوَجْدَانِيَّةِ، الَّتِي جَمَعَتْهُمْ وَوَحَّدَتْهُمْ، فِي اسْتِثَارَةِ الْعَوَاطِفِ إِلَى مَا تَقْصِدُ، مِنْ إِظْهَارِ الْفَجِيعَةِ، فِي أَجْوَاءِ الْمَصِيبَةِ وَالْحُزَنِ، وَاجْتِلَاطِ الْأُمُورِ بِفَقْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مَدْخَلًا إِلَى مِضْمُونِ الْخُطْبَةِ وَالتَّعْبِيرِ عَنِ الرَّأْيِ.^(٥)

ثُمَّ ابْتَدَأَ نَصَّ الْخُطْبَةِ، بِالْمَعْهُودِ فِي الْخُطْبِ الْإِسْلَامِيَّةِ، مِنْ مَخْتَصِرٍ لِمَسَائِلِ التَّوْحِيدِ وَصِفَاتِ الْخَالِقِ وَأَسْمَائِهِ، وَالْغَايَةِ مِنْ خَلْقِ الْبَشَرِ، إِذْ تَنْطَلِقُ مِنْ حَمْدِ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَذِكْرِ صِفَاتِهِ جَلٍّ وَعَلَا، فِي سَبْكِ بَنِيَّةِ اسْتِهْلَالِيَّةٍ إِيقَاعِيَّةٍ مَنْسُجِمَةٍ، قَرِيبَةٍ مِمَّا نَجَدُهُ

(١) شرح نهج البلاغة ١٦/٣٤٦.

(٢) لسان العرب م: هنو ٦/٤٧١٣.

(٣) لسان العرب م: رجج: ٣/١٥٨٥.

(٤) لسان العرب م: نشج: ٦/٤٤٢٠.

(٥) فذك في التاريخ: ١١٥.

في نهج البلاغة^(١)، في قولها:

«...الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدّم، من عموم نعم ابتدأها، وسبوغ آلاء أسداها، وإحسان منن والاهـ...»^(٢).

فكان ذلك في سياق استهلاكي إيقاعي فنيّ، ترتبط فيه هذه البنيات ارتباطاً محكمًا، وتدور معاني مفردات فواصل وقفها على ذات المحمود المشكور المنعم الملهم المقدّم... وقد ارتكز الخطاب على هذه المعاني، فكانت البؤرة التي تمددت منها جملة الفقرة الأولى؛ لأنّ حمد الله على نعمه منطلق الإيمان، والوسيلة التي تجمع المخاطبين، وقد اعتمد هذا الاستهلال على ركنين أساسيين هما الإيقاع والدلالة، وبهما يُستجلب ذهن المخاطب نحو استقبال النصّ، وقد كوّنّا مجاميع متشابهة من جهة، ومختلفة بإيقاعها عن بعضها، (أنعم، وألهم، وقدّم، ابتدأها، وأسداها، ووالاهـ...) منتجة دقات هيمنت على فضاء المتلقي لتستحثّ إحساسه، وتشدّ ذهنه إلى ما سيُقال^(٣).

ثمّ تمدّد هذا الاستهلال إلى بؤرة ثانوية هي كلمة التوحيد: (أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له) المرتبطة بالأولى، فالشهادة للواحد الأحد، والإخلاص له، والطاعة لأوامره ونواهيه، إذ المأل إليه، والعقاب والثواب بين يديه، إذ قالت:

«أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمّن القلوب موصولها، وأبان في الفكر معقولها، الممتنع من الإبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام الإحاطة به، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا

(١) بنية الحجاج، د. فاطمة ٢٤١.

(٢) بلاغات النساء: ١٩، دلائل الإمامة: ١٢٢، والسقيفة وفدك: ٢ / ١١١، وشرح نهج البلاغة:

٣٤٥ / ١٦، وكشف الغمة ٢ / ١٠٩.

(٣) بنية الحجاج، د. فاطمة ٢٤٢.

احتذاء أمثلة امثلها... إظهاراً لقدرته، وتعبداً لبريته، وإعزازاً لأهل دعوته، ثم جعل الثواب لأهل طاعته، ووضع العقاب على معصيته، ذياراً لعباده عن نقمته، وحياسة لهم إلى جنته»^(٤).

فالمدار هنا مدار الشهادة لله، وما يتممها من الإخلاص القلبي والتفكير العقلي، وامتناع رؤية الباري ﷻ، وعجز الألسنة عن إدراك وصفه، ومن الوهم الإحاطة به، ابتدع الكون بلا مثال، ليظهر قدرته، وليتعبّد خلقه، وليعزّ الصالح، ويثيب الطائع، ويُعاقب العاصي على معصيته، ويبعد المخلص من نقمته، ويأخذه إلى جنته.

فكان هذا من التذكير باكتمال الدين وإتمام النعمة، المدخل إلى الثقافة القرآنية المحمديّة الحقّة، التي تستند إلى الثبات على الدين وأهله، وإخلاص النية لله، والثقة به جلّ وعلا، لا التردّد والتقلّب، والتفكير في منافع دنيويّة قريية، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا... إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾^(٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا^(٦)، (هذه الآيات الشريفة تفصل بين الفئات الزائغة عن الإيمان المفارقة لمجتمع المؤمنين... فالمحكّ الحقيقي للإيمان: هو التوبة، والرضا، والتسليم، والإخلاص لله والاعتصام به)^(٦)، والنفاق قلبي، وقد اختلّت فطرة المنافق، واضطربت أفعاله، فيصعب إصلاح نفسه بالتوبة والعودة إلى رشده، لذلك قدّم هذا الشرط على بقية الشروط، أمّا الشرط الثاني فهو: الإصلاح الذي يجب أن يقترن بالتربية

(٤) بلاغات النساء: ١٩-٢٠، السقيفة وفدك: ١١١/٢، ودلائل الإمامة: ١١٢-١١٣.

(٥) النساء: ١٣٧، ١٤٥-١٤٦.

(٦) مواهب الرحمن: ٣٥/١٠.

وترويض النفس وقهرها على العمل بأحكام الله تعالى، ليخرج المنافق من فساد النية والتردد والاضطراب، والشرط الثالث: الاعتصام بالله والتمسك بحبله المتين ليزول الشك والتردد، والشرط الرابع: الإخلاص لله تعالى ونبد الشرك والرياء والتواني في الطاعة، فإذا تحققت تلك الشروط استقامت الفطرة، وتحققت القاعدة الحكيمة المبنية على تعاليم الله عز وجل ودينه الحق، وثبت الإخلاص، وهذه الصفات هي صفات المؤمنين المخلصين الذين تمحضوا في الإيمان.^(١)

ويعرض صاحب الميزان ترابط الشروط، ﴿الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا﴾ ليكونوا مع المؤمنين، فلا تنفع التوبة وحدها حتى يصلحوا كل ما فسد، (ولا ينفع الإصلاح إلا أن يعتصموا بالله أي يتبعوا كتابه وسنة نبيه ﷺ... ولا ينفع الاعتصام المذكور إلا إذا أخلصوا دينهم لله... [إذ] إن المراد بالمؤمنين هم المؤمنون محضاً المخلصون للإيمان)^(٢).

وعن رسول الله ﷺ قوله: «إِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كلمة عظيمة كريمة على الله عز وجل، من قالها مخلصاً استوجبت له الجنة».^(٣)

وعن الإمام عليّ عليه السلام: «أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصَدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصَدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلَاصُ لَهُ، وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ».^(٤)

وعنه عليه السلام أيضاً: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الْأَوَّلُ لَا شَيْءَ قَبْلَهُ،

(١) مواهب الرحمن: ٥٦/١٠-٥٧.

(٢) الميزان: ١٠٤/٥.

(٣) التوحيد: ٤٤/١.

(٤) شرح نهج البلاغة: ٦٢/١.

والآخر لا غاية له... دلّت عليه أعلام الظهور، وامتنع على عين البصير، فلا عين من لم تره تُنكره، ولا قلب من أثبتّه يبصره... وكلّ سميع غيره يصمّ عن لطيف الأصوات، ويصمّمه كبيرها، ويذهب عنه ما بُعد منها، وكلّ بصيرة غيره يعمى عن خفيّ الألوان ولطيف الأجسام، وكلّ ظاهر غيره غير باطن، وكلّ باطنٍ غيره غير ظاهر... ولم يطلع العقول على تحديد صفته، ولم يحجبها عن واجب معرفته... لا تقع الأوهام على صفة، ولا تعقد القلوب منه على كيفية، ولا تناله التجزئة والتبعيض، ولا تُحيط به الأبصار والقلوب»^(١).

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، في قوله تعالى ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ قال: «... ليس يعني بصر العيون، فمن أبصر فلنفسه، ليس يعني من البصر بعينه، ومن عمى فعليها، ليس يعني عمى العيون، إنّما عنى إحاطة الوهم، كما يقال: فلان بصير بالشعر، وفلان بصير بالفقه، وفلان بصير بالدراهم، وفلان بصير بالثياب، الله أعظم من أن يُرى بالعين... سبحانه من لا يُحدّ ولا يُوصف، وليس كمثله شيء، وهو السميع البصير»^(٢).

فكانت السيدة قد عرضت لربط امتحان التوحيد بالإخلاص لله تعالى؛ لأنه الغاية، لا التظاهر أو الادّعاء اللفظي، واتضح من عرضها المعرفة الدقيقة بمقام التوحيد، الأصل في عقيدة الإسلام، هذا الإخلاص الذي لا بُدّ أن يكون متصلاً في السر والعلن، وواضحاً في العقل والفكر والقلب واللسان، قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ﴾^(٣).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة، قيل: يا رسول الله

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/١٤٩، ٥/١٠٢، ٦/٤١٠.

(٢) أصول الكافي: ١/٥٨-٥٩.

(٣) غافر: ٦٥.

وما إخلاصها؟ قال: أن تحجزه عن المحارم»^(١).

ومن هذا ما جاء في خطبة الإمام عليه السلام: «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادةً مُمتحنًا إخلاصها...»^(٢).

(... والزهاء لا يلحقها لاحق في هذا، ولا يسبقها سابق بعد أيها وبعلمها... في التوحيد والمعارف الخمسة وأصول الدين وفروعه)^(٣).

وبعد توحيد الله والثناء عليه والإخلاص له ذكرت الشهادة لنبوة محمد عليه السلام، وجاء في أكثر الروايات لفظ مقام هذه الشهادة مضافاً إلى (ياء) المتكلمة (أبي)، في قولها: «وأشهد أن أبي محمداً عبده ورسوله»، فهل يجوز لها أن تدعوه بغير ما يدعوه المسلمون؟! والجواب أنها في مرة لما نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾^(٤)، قالت فاطمة عليها السلام: «تَهَيَّئْتُ النَّبِيَّ عليه السلام أَنْ أَقُولَ لَهُ: يَا أَبَهُ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَعْرَضَ عَنْ مَرَّةٍ وَاثْنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ: يَا فَاطِمَةُ لِمَ تَنْزِلُ فِيكَ، وَلَا فِي أَهْلِكَ، وَلَا فِي نَسْلِكَ أَنْتِ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ، وَإِنَّمَا نَزَلْتُ فِي أَهْلِ الْجَفَاءِ وَالْغِلْظَةِ مِنْ قَرِيشٍ، قُولِي: يَا أَبَهُ، فَإِنَّهَا أَحْيَا لِلْقَلْبِ وَأَرْضَى لِلرَّبِّ، ثُمَّ قَبَلَ جَبْهَتِي...»^(٥). ولم يقل النبي عليه السلام لأحدٍ: «أَنْتِ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ» إِلَّا لِعَلِّي وَفَاطِمَةُ ذَلِكَ لِأَنَّ ذَرِيَّتَهُ عليه السلام مِنْهَا^(٦).

وفي نسبة النبي عليه السلام إلى ياء المتكلمة تعبير حجاجي لطيف للتأثير في المخاطبين

(١) الترمذي في نوادر الأصول، عن الميزان: ١٠٦ / ٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، الخطبة الثانية: ١٠٥ / ١.

(٣) حياة الزهاء بعد أبيها: ١٢٢.

(٤) النور ٦٣.

(٥) مناقب آل أبي طالب، لابن شهر آشوب: ١٠٢ / ٣.

(٦) السنن الكبرى، البيهقي: ٥ / ٨، وكشف الغمة: ٩٧ / ١.

ودعوتهم إلى التبصّر؛ لأنّ بالأمر حاجة إلى إدراك الاختلاط وعدم التّبين، وكانت جملة الشهادة لنبوته، هي نواة البؤرة الثّانويّة الثّانية:

«وأشهد أن أبي محمّداً عبده ورسوله، اختاره قبل أن يجتبله، واصطفاه قبل أن يبتعثه، وسماه قبل أن يستنجه، وابتعثه الله إتماماً لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، فرأى الأمم فرقاً في أديانها، عكفاً على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكّرة لله عرفانها، فأثار الله بمحمد ظلّمها، وفرّج عن القلوب بهمها، وجلاّ عن الأبصار عمها، وعن الأنفس غمّها»^(١).

فقد امتدت هذه الجملة إلى ذكر فضل هذه النبوّة، التي رفعها الله جل وعلا، بأن كانت لها (قبليّات) الاختيار والاصطفاء والاستنجاب، إذ إنّ اختياره ﷺ كان قبل خلقه في هذه الدنيا، وإنّ اصطفاءه قبل بعثته، وتسميته قبل استخلائه واصطفائه واختياره، وإنّ ذلك كلّ من فيض علم الله، ومن فضاء قدرته وإحاطته بمواقع المقدور، والدليل على هذه (القبليّات) أنّه بُشّر به قبل أن يولد في الكتب السماويّة، ومنها ما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾^(٢).

ثمّ جاء ذكر الغاية من بعثته ﷺ، وأنها إتمام علم الله، والحكم بحكمه، والنور الذي يُضيء ظلمات الأنفس والقلوب والأبصار؛ لأنّ انحراف العبادات يعمي الأبصار.

وتختتم المقطع بذكر قبضه ورحيله ﷺ من دار الدنيار، في قولها:

«ثمّ قبضه الله قبض رآفة واختيار، رغبة بأبي ﷺ عن تعب هذه الدار، موضوعاً

(١) بلاغات النساء: ٢٠، ودلائل الإمامة: ١١٢.

(٢) الصف: ٦.

عنه أعباء الأوزار، محفوفاً بالملائكة الأبرار، ومجاورة الملك الجبار، ورضوان الرب الغفار، فصلّى الله عليه... ورحمة الله وبركاته»^(١)، لنلاحظ كيف عبرت عن حاله ﷺ في المرحلتين، مرحلة التعب والجهاد في الحياة الدنيا، حياة المخاطبين، لكنّها في الأخرى تركت ذكر (النعيم المادّي كلّّه، وملذوذات الحسّ حين أرادت أن تقرض فردوس أبيها وجنته الخالدة؛ لأنها رأت في معاني أبيها العظيم ما يرتفع على ذلك كلّّه، وما قيمة اللذة الماديّة... في حساب محمد ﷺ الروحيّ، الذي لم يرتفع أحد بالروح الإنسانية كما ارتفع بها)^(٢).

المقطع الثاني: مقطع التذكير بدوام التكليف

ابتدأت هذا المقطع بالجملة الاسميّة: «أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه»، وهي مدار هذه الفقرة، أرادت بها تذكير المخاطبين بضوابط الدعوة المباركة، وتوكيد منهجها، وأؤها الأخذ بأوامر الله ونواهيه، وبالتفكير في ثبات تكليفهم الشرعي، بعد خلوّ مقام النبوة، في قولها:

«أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم، زعيم الله فيكم، وعهد قدّمه إليكم، وبقية استخلفها عليكم: كتاب الله، بينة بصائر، وآي منكشفة سرائره، وبرهان فينا، متجلية ظواهره، مُدِيمٌ للبرية استماعه، وقائد إلى الرضوان أتباعه، ومؤدّ إلى النجاة أشياعه، فيه تبيان حجج الله المنورة، ومواعظه المكررة، وعزائمه المفسرة، ومحارمه المحذرة، وأحكامه الكافية، وبيئاته الجالية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، ورحمته المرجوة، وشرائعه

(١) بلاغات النساء: ٢٠، والسقيفة وفدك: ١١١/٢، ودلائل الإمامة: ١١٢.

(٢) فدك في التاريخ: ١٢٣.

المكتوبة...^(١)

فاستمرار واجبهم في التبليغ إلى الأمم، بحسب مضامين ما نُزل عليهم في مواصلة ذات الطريق، طريق النجاة المحمديّ الواضح، طريق الحق والهداية، فما عليهم إلا أن يواصلوا السير استناداً إلى ما بُلّغوا به، من التمسك بالقرآن الكريم والعترّة الطاهرة، فهم موكلون، ومؤتمنون على أنفسهم، وهم نصبُ أمرِ الباقي الحيّ الذي لا يموت، وأنّ واجباتهم بعد رحيل المبعوث رحمة ﷺ هي هي.

وكأنّها تُنبّه على تغييرهم وتراجعهم، وتستشعر ابتعادهم، وربما كانت تتوقع أكثر من التراجع، أو قلّ تلمسه، فكانت تدعوهم ليتأملوا ويتفكروا، فالتزّل حبلُ النجاة المتين، والحجة البالغة التي لا تُردّ؛ لأنّ فيه جلاء العيون، وسداد التوجه، ومن كان عليه فهو على النور، وعلى هديّ البقية التي استخلفها المبعوث رحمة، في المنهج والروح والسلوك.

ويتضح من الإشارة إلى (زعيم الله فيكم، وعهد قدّمه إليكم، وبقية استخلفها عليكم)، تنصيب الوليّ من الله، والبقية ذرية الأنبياء، بقية إلهية بهداية الله، وهي تومئ إلى ما ورد من (البقية) في قوله تعالى: ﴿...وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾^(٢)، وإضافة (بقية) إلى لفظ الجلالة (الله): (بقية الله)، التي جاءت في قوله تعالى: ﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾^(٣)، (...) إضافة تشريف وتيمّن... والمعنى إبقاء الله عليكم ونجاتكم من عذاب الاستئصال خير لكم من هذه الأعراض السيئة العاقبة، فيكون تعريضاً لهم بالاستئصال^(٤)، وبقية الله وطاعته خير من جميع ما

(١) بلاغات النساء: ٢٠، والسقيفة وفدك: ٢ / ١١٢، ودلائل الإمامة: ١١٣ - ١١٤.

(٢) البقرة: ٢٤٨.

(٣) هود: ٨٦.

(٤) التحرير والتنوير: ٣١٢ / ١١.

يُؤْمَلُونَ فِي الدُّنْيَا، وَيُطْمَحُونَ فِيهَا لَيْسَ لَهُمْ^(١)؛ لَأَنَّ (أَعْمَالَ الْإِنْسَانِ مَحْفُوظَةٌ عِنْدَ اللَّهِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ)^(٢)، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا...﴾^(٣)؛ (لَأَنَّ مَا يُؤْمَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ مَيَسُورٌ لِلْإِنْسَانِ فَهِيَ أَصْدَقُ أَمَلًا مِنْ زِينَاتِ الدُّنْيَا وَزَخَارِفِهَا الَّتِي لَا تَفِي لِلْإِنْسَانِ أَكْثَرَ مِمَّا تَعُدُّ، وَالْأَمَالُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِهَا كَاذِبَةٌ...)^(٤) وَمَعْنَى (الْبَقِيَّةُ) أَيْضًا: الْفَضْلُ وَالْخَيْرُ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿...أُولَئِكَ بِقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ...﴾^(٥)، (أَتْبَاعُ الرِّسْلِ وَحَمَلَةُ الشَّرَائِعِ يَنْهَوْنَ قَوْمَهُمْ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ)^(٦).

وَفِي (الْبَقِيَّةِ) وَ(الِاسْتِخْلَافِ) مِنْ قَوْلِ السَّيِّدَةِ: «وَبَقِيَّةُ اسْتِخْلَافِهَا عَلَيْكُمْ: كِتَابُ اللَّهِ، بَيِّنَةٌ بِصَائِرِهِ، وَأَيُّ مَنكُشِفَةٍ سِرَائِرِهِ، وَبِرْهَانٍ فِيْنَا»، إِظْهَارٌ لِمَكَانَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَرَبِطٌ بِحَدِيثِ الثَّقَلَيْنِ الْمَشْهُورِ: «إِنِّي تَارِكٌ مَا إِنَّمَا تَمْسِكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي، أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الْآخَرِ: كِتَابُ اللَّهِ، حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَعِزَّتِي أَهْلُ بَيْتِي، وَلَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُقُونِي فِيهِمَا؟!»^(٧)، فَالْتَمَسْتُ بِالْبَقِيَّةِ وَمِنْهُمْ الْمُسْتَخْلَفُ مِنْ آلِ الْبَيْتِ: «قَائِدٌ إِلَى الرِّضْوَانِ أَتْبَاعُهُ، مُؤَدِّ إِلَى النِّجَاةِ أَشْيَاعُهُ».

وَتَعْنِي بِ «قَائِدٌ إِلَى الرِّضْوَانِ أَتْبَاعُهُ...» الْوَصِيِّ، وَالرِّضْوَانُ الرِّضَا الْكَثِيرُ، وَأَعْظَمُ الرِّضَا رِضَا اللَّهِ تَعَالَى، وَخُصَّ بِهِ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ^(٨)، فِي الْآيَاتِ:

(١) مجمع البيان ٥/ ٢٤١، والميزان: ١٠/ ٢٨٨.

(٢) الميزان: ١٣/ ٢٥٨.

(٣) الكهف: ٤٦، ومريم: ٧٦.

(٤) الميزان: ١٣/ ٢٥٨.

(٥) هود: ١١٦.

(٦) التحرير والتنوير: ١١/ ٣٤٦.

(٧) الجامع الصحيح للترمذي: ٥/ ٦٦٣، ومسنند الإمام أحمد: ٣/ ١٤، ١٥، وصحيح مسلم: ٩١٠.

حديث ٦٢٥١.

(٨) مفردات ألفاظ القرآن: ٢٧٧.

﴿...يَتَّعُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً...﴾^(١)، ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ...﴾^(٢)، ﴿...يَتَّعُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً...﴾^(٣).

وعطف على قيادته إلى الرضوان تأديته إلى النجاة، (مؤدِّ إلى النجاة أشياعه)، قوله تعالى: ﴿مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النِّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾^(٤).

والبقية المستخلف الثقل الثاني، يستند إلى إمكانات تبيان حجج الله، الواضحة الدامغة التي لا ريب فيها، «فيه تبيان حجج الله المنورة»، جملة اسمية مبتدؤها متأخر أضيف إلى ما بعده، ثم عطف على المضاف إليه تسع مرّات، يُبيّن كلاً منها البقية المستخلف، في قولها: «فيه تبيان حجج الله المنورة، ومواعظه المكررة، وعزائمه المفسرة، ومحارمه المحذّرة، وأحكامه الكافية، وبيّناته الجالية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، ورحمته المرجوة، وشرائعه المكتوبة»^(٥)، أي أنّ البقية المستخلف: يبيّن المواعظ المكررة، والفضائل المندوبة، والرخص الموهوبة، والرحمة المرجوة، والشرائع المكتوبة.

المقطع الثالث: مقطع علل التشريع

فبعد مقطعي التوحيد والتكليف، يأتي مقطع تبيان علل التشريع والقصد من التكليف، والحكمة من أداء الواجبات الشرعية؛ لأنّها غاية الخطبة، وهذا يخصّ الأمة في ذلك الزمان، وفي كلّ زمان.

قد جاءت مضامين هذا المقطع واضحة، ومركزة، وعباراته مختصرة، بكلمتين،

(١) الفتح: ٢٩.

(٢) الحديد: ٢٧.

(٣) الحشر: ٨.

(٤) غافر: ٤١.

(٥) كشف الغمة: ٢/ ١١١.

أو ثلاث كلمات، في ثنائيات، وتقابلات تدلّ على التنظيم والتنسيق واختزان العلم، والبيان، واليقين من تثبيت التعليل.

وفيها أيضًا غاية فلسفة الأحكام وأسرارها، وتنظيم حياة المجتمع والأفراد، فضلاً عن أنّ نظم هذه التوجيهات والإرشادات مثلما سنرى، ينمُّ عن الاستعداد العالي لهذه الخطبة، ومراجعة ما فيها قبل عرضها، في ذلك المقام الكبير، ففيها ما جاء به الرسول ﷺ من شرائع ووصايا، هي في حقيقتها ثوابت الإسلام، فضلاً عن مصلحة المخاطبين، وضمان سعادتهم في الدنيا والآخرة، وكانت بؤرة المقطع السابق ومفتحه: «أنتم عباد الله»، ومفتتح هذا المقطع وبؤرته: (فرض الله عليكم الإيمان)، فالربط والتعلق بين البؤرتين مباشرٌ وواضح بين المقطعين، وهذا هو نص مقطع علل التشريع:

«فرض الله عليكم الإيمان: تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة: تنزيهاً عن الكبر، والزكاة: تزييداً في الرزق، والصيام: تثبيتاً للإخلاص، والحج: تشييداً للدين، والحق: تسكيناً للقلوب وتمكيناً للدين، وطاعتنا: نظاماً للملّة، وإمامتنا: لمّاً للفرقة، والجهاد: عزّاً للإسلام، والصبر: معونة على الاستيجاب، والأمر بالمعروف: مصلحة للعامة، والنهي عن المنكر: تنزيهاً للدين، والبرّ بالوالدين: وقاية من السّخط، وصلة الأرحام: منماة للعدد وزيادة في العمر، والقصاص: حقناً للدماء، والوفاء بالندور: تعرّضاً للمغفرة، وتوفية المكايل والموازين: تغييراً للبخس، والتناهي عن شرب الخمر: تنزيهاً عن الرّجس، واجتناب قذف المحصنات: حجاباً من اللعنة، والنهي عن الزنا: تحصناً من المقت، وترك السرقة: إيجاباً للعِفّة، والتنزّه عن أكل أموال الأيتام: إجارة من الظلم، والعدل في الحكم: إيناساً للرعيّة، وترك الجور في الحكم: إثباتاً للوعيد، والتبرّي من الشرك: إخلاصاً للرّبوبيّة، فاتقوا الله حقّ تقاته، ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون، ولا تتولّوا مدبرين، وأطيعوه فيما أمركم ونهاكم، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ

عِبَادِهِ الْعُلَمَاءَ ﴿١﴾، فاحمدوا الله الذي بعظمته ونوره ابتغى من في السماوات ومن في الأرض إليه الوسيلة، فنحن وسيلته في خلقه، ونحن آل رسوله، ونحن حجة غيبه، وورثة أنبيائه ﴿٢﴾.

وسيدة النساء رائدة في التأسيس للإقناع بمضمون العقيدة الإسلامية، وتبيان موقف آل بيت الرسول بعد رحيله ﷺ، إذ صرّحت بأن الأمر بعده إليهم، بتقدير: فرض الله (طاعتنا: نظاماً للملة، وإمامتنا: لمّاً للفرقة)، فكان عرض هذا الفرض هو خلاصة الردّ على ما اتّخذ ودبر من مواقف.

ويُلاحظ أنها بدأت بالإيمان، وختمت بالنهي عن الشرك، والإخلاص لله بالعبودية، لأهمية ذلك في تزكية النفس، وتنزيه روح الإنسان وفكره وسلوكه.

ثم ذكرت ثلاثة أوامر: فاتقوا الله.. وأطيعوه.. فاحمدوا الله، وذكرت نهيان: لا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون.. ولا تتولّوا مدبرين.

وربطت كلّ ما تقدّم بخشية الله، التي لا تُدرك إلّا بالعلم، وبالوسيلة إليه، ومصدق هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (٣)، التقوى أولاً ثم ابتغاء الوسيلة إليه، للنجاة من كلّ شقاء وعذاب، فلا منجى إلّا بالتوسّل إليه ﷺ، وآل البيت الوسيلة إليه، بعد اتباع الشريعة والتقوى، فهم أبواب رحمته في الأرض، قال تعالى: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ (٤)، أي اتوا الأمور من وجوهها الصحيحة، وقال ﷺ: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها» (٥)، وعن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام): «الأوصياء

(١) المائدة: ٥٠.

(٢) كشف الغمّة: ٢ / ١١١.

(٣) المائدة: ٣٥.

(٤) البقرة: ١٨٩.

(٥) رواه الحاكم في المستدرک: ٣ / ١٢٦.

هم أبواب الله ﷻ، وبهم احتجّ الله تبارك وتعالى على خلقه»^(١).

وَجُلُّ بناء جمل هذا المقطع عبارة عن جملٍ معطوفة على جملة البؤرة المحوريّة، الجملة الفعلية: «فرض الله عليكم الإيمان: تطهيراً لكم من الشرك»، فهي مؤلفة من الفعل (فرض)، والفاعل لفظ الجلالة (الله)، والجار والمجرور (عليكم)، والمجرور ضمير المخاطبين، يعود على الذين ابتدأت به الفقرة السابقة (أنتم عباد الله)، و(الإيمان) مفعول به، و(تطهيراً) مفعول لأجله، ثمَّ عُطِفَ على المفعول به، والمفعول لأجله (من جملة الافتتاح) مثلها، أربع وعشرون مرّة، في تقدير (فرض الله عليكم)، مع كلّ مرّة من هذه المرّات، بمعنى:

(فرض الله عليكم) الصلاة: تنزيهاً عن الكبر، و(فرض الله عليكم) الزكاة: تزييداً في الرزق، و(فرض الله عليكم) الصيام: تثبيتاً للإخلاص، و(فرض الله عليكم) الحج: تشييداً للدين، و(فرض الله عليكم) الحق: تسكيناً للقلوب وتمكيناً للدين، و(فرض الله عليكم) طاعتنا: نظاماً للملّة، و(فرض الله عليكم) إمامتنا: لمّاً للفرقة، و(فرض الله عليكم) الجهاد: عزّاً للإسلام، و(فرض الله عليكم) الصبر: معونة على الاستيجاب، و(فرض الله عليكم) الأمر بالمعروف: مصلحة للعامة، و(فرض الله عليكم) النهي عن المنكر: تنزيهاً للدين، و(فرض الله عليكم) البرّ بالوالدين: وقاية من السّخط، و(فرض الله عليكم) صلة الأرحام: مناة للعدد وزيادة في العمر، و(فرض الله عليكم) القصاص: حقناً للدماء، و(فرض الله عليكم) الوفاء بالنذور: تعرّضاً للمغفرة، و(فرض الله عليكم) توفية المكايل والموازين: تغييراً للبخس، و(فرض الله عليكم) التناهي عن شرب الخمور: تنزيهاً عن الرجس، و(فرض الله عليكم) اجتناب قذف المحصنات: حجاباً من اللعنة، و(فرض الله عليكم) النهي عن الزنا: تحصناً من المقت، و(فرض الله

(١) أصول الكافي: ١ / ١١١.

عليكم) ترك السرقة: إيجاباً للعفة، و(فرض الله عليكم) التنزه عن أكل أموال الأيتام: إجارة من الظلم، و(فرض الله عليكم) العدل في الحكم: إيناساً للرعية، و(فرض الله عليكم) ترك الجور في الحكم: إثباتاً للوعيد، و(فرض الله عليكم) التبري من الشرك: إخلاصاً للربوبية).

المقطع الرابع: مقطع التعريف بمكانة سيّدة النساء

كررت الزهراء عليها السلام في نهاية المقطع السابق الضمير (نحن) ثلاث مرّات في قولها: «نحن وسيلته في خلقه، ونحن آل رسوله، ونحن حجة غيبه، وورثة أنبيائه»، وتبدأ هذا المقطع «المقطع الرابع» بـ «أنا فاطمة وأبي محمد»، وهذه الجملة هي بؤرة هذا المقطع، والضمير في الجمل بعدها يعود عليها، «أقولها عوداً على بدءٍ، وما أقول إذ أقول سرفاً ولا شططاً، فاسمعوا إليّ بأسماع واعية، وقلوب راعية»^(١)، وفي: (أقولها)، و(أقول) ضمير المتكلمة المستتر، أي: أقول الفاعل: «أنا فاطمة وأبي محمد»، بمعنى أقول هذه العبارة وأكرّرها، وقد كرّرت الفعل (أقول) ثلاث مرّات متجاورات، وقد نفت عن قولها السرف والشطط، والسرف: تجاوز الحدّ، والشطط: البعد عن الحقّ^(٢)، في حين طلبت من المخاطبين السماع بوعي، والتوكيد بتكرار القول والسماع دليل على الحاجة إليهما في الحوار لمنع التباعد والاختلاف.

أمّا البؤرة الثانوية في هذه الفقرة فهي المتولّدة من البؤرة الأصلية، أقصد الحديث عن (أبي محمد)، إذ تشهد لأبيها بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(٣)، إن تعزوه تجدوه أبي دون

(١) كشف الغمة: ١١٢/٢.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: ٣٦٢-٣٢١.

(٣) التوبة: ١٢٨.

نسائكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم، ولنعم المعزّي إليه»^(١).

«ليس لرجالكم من له هذه النسبة من رسول الله، ولا من نسائكم من أوتيت نصيباً يداني نصيبي، فالفضل كله، والشرف جملته بغير واسطة مُنيخ بساحتي ومقيم بحضرتي، ما فاتني منه شيء، ولا ناله أحد منكم غيري»^(٢).

فمن جهة تؤكد حرصه ﷺ عليهم، ورأفته ورحمته بهم، ومن جهة أخرى تؤكد نسبتها الشريفة، ونسبة زوجها الإمام ﷺ منه ﷺ، فلا يُدانيها في هذا الشرف أحد، «ولنعم المعزّي إليه».

فمن هذه النسبة الزعيم المستخلف، والكتاب الناطق، الذي بين يديه نجاة المخاطبين، إذ به تنال حجج الله المنورة وعزائمه المفسرة، ومحارمه المحذرة، وبياناته الجليلة، وبراهينه الكافية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة^(٣).

فما المنجز الكبير المُسَكِّت الذي أنجزه ﷺ؟ هذا ما ستذكره في البُرة الثانويّة الثانية: (بَلِّغِ النَّذَارَةَ)، على تقدير: أبي محمد ﷺ بَلِّغِ النَّذَارَةَ، ثمّ تتبع هذه الجملة بسبع عبارات، هي أحوال من الضمير في (بَلِّغِ النَّذَارَةَ)، خمس عبارات منها مبدوءة باسم فاعل (صادعاً، وناكباً، وضارباً، وآخذاً، وداعياً) هي (الأحوال) التي تحققت بفضلته ﷺ:

١. صادعاً (صادعاً بالرسالة)، قال تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾^(٤) والصدع:

الفصل^(٥).

(١) بلاغات النساء: ٢٠، ودلائل الإمامة: ١١٦، كشف الغمّة: ٢ / ١١٢.

(٢) شرح خطبة الزهراء للمجلسي: ٤٩.

(٣) بلاغات النساء: ٢٠، ودلائل الإمامة: ١١٣-١١٤.

(٤) الحجر: ٩٤.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن: ٣٨٣.

٢. ناكِبًا (ناكبًا عن سنن المشركين).

٣. ضاربًا (ضاربًا لأثباجهم).

٤. آخذًا (آخذًا بأكظامهم).

٥. داعيًا (داعيًا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة).

وحالان من الفعل المضارع:

١. (يجذّ الأصنام)، أي يقطع ويكسر، قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾^(١) جعل الأصنام قطعًا مكسورة.^(٢)

٢. (ينكت الهام)، أي يُلقيهم على رؤوسهم، فتحقق ما تحقق، (حتى انهزم الجمع وولّوا الدبر، وحتّى تفرّى الليل عن صبحه)، ثمّ تعطف ما كانوا عليه، وما صاروا إليه، في قولها:

«بلغ النذارة، صادقًا بالرسالة، ناكِبًا عن سنن المشركين، ضاربًا لأثباجهم، آخذًا بأكظامهم، داعيًا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، يجذّ الأصنام، وينكت الهام، حتى انهزم الجمع وولّوا الدبر، وحتّى تفرّى الليل عن صبحه، وأسفر الحقّ عن محضه، ونطق زعيم الدين، وهدأت فورة الكفر، وخرست شقاشق الشياطين، وفهتَم كلمة الإخلاص، وكنتم على شفا حفرة من النار، فأنقذكم نبيّه، تعبدون الأصنام، وتستقسمون بالأزلام، مُدقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون القدّ [تأكلون الجلد النّيّ]، أدلّة خاشعين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم بنبيّه ﷺ بعد اللتيّا والتي، وبعد ما مني بهم

(١) الأنبياء: ٥٨.

(٢) الميزان: ١٤ / ٢٤٤.

الرجال، وذؤبان العرب»^(١)، فقد حوّلهم ﷺ من حال إلى حال أخرى.

ومن مثل هذا النصّ ومعناه قول أمير المؤمنين: «أنتم معشر العرب على شرّ دين، وفي شرّ دار، منيخون بين حجارة خشن، وحياتٍ صمّ، تشربون الكدر، وتأكلون الجشِب، وتسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم... الأصنام فيكم منصوبة، والآثام بكم معصوبة»^(٢).

ثم تُظهرُ السيّدة ما واجهه ﷺ من أهوال، ومن كان المتقدم فيها، والرائد المؤمن المقدام المضحّي المنصور المؤيّد، في المواقف التاريخية الكبيرة، فيما كان المخاطبون بعيدين عن المخاطر، وادعين، في قولها مبتدئة بالاستشهاد بالقرآن الكريم: «كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ»^(٣)، أو نجم قرن الضلالة، أو فغرت فاعرة المشركين، قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفي حتى يطاء صاخها بأخصه، ويخمد لهبها بحدّه، مكدودًا في ذات الله، قريبًا من رسول الله، سيّدًا في أولياء الله»^(٤).

فمكانة السيّدة عالية مستمدّة من منزلة رسول الله ﷺ، ومن تضحية ابن عمّها ﷺ في اللحظات التاريخية الفاصلة، وكان المتصدّي الأكبر لمواجهة الصعاب، ذلك الذي وهب نفسه لهذه الدعوة وآثر صاحبها على نفسه، والذي كان ينقضّ على ما واجهه من فتن، ويهوي بسيفه على رؤوس المتكبرين، فهو المدافع الناصر لرسول الله في كلّ الوقائع، التي يعرفها المخاطبون.

فقد أرادت التذكير بمواقف الإمام ﷺ التي خلدها الأحداث الإسلامية الكبرى،

(١) كشف الغمّة: ١١٢.

(٢) شرح نهج البلاغة، الخطبة ٢٦، ٢/ ٢٧١.

(٣) المائدة: ٦٤.

(٤) دلائل الإمامة: ١١٦، وكشف الغمّة: ١١٢.

وبتشيت حق أهل البيت.

فهي تنبههم على قرابة الإمام عليه السلام من النبي ﷺ، فهو ربيبه وابن عمه، وزوج ابنته، وكان له البلاء المشهود في كل مرحلة من مراحل حروب رسول الله ﷺ، وجهاده الذي لا يُبارى في كل الوقائع، فالإمام المتقدم وقطب الرchy، والمطفئ لما يُوقد من نيران هذه الحروب، فلا يعود منها حتى يُحمدَ لُهبها بحدّ سيفه، وهو العابد الزاهد المكدود في ذات الله، القريب من رسول الله، المعروف بالإخلاص وغازاة العلم، وهذه المؤهلات هي مؤهلات الإمام لمقام الخلافة بعد رسول الله، في حين لم يكنِ المخاطبون كذلك، بل كانوا ينكصون عند النزال، ويتتظرون النتائج في تلك المواقف والشدائد، إذ كانوا في دعة وسعة وأمان، حتى أقام الله عمود الدين.

المقطع الخامس: مقطع المخاطبين والفتنة الكبرى

عُرض في هذا المقطع حالّ المخاطبين بإزاء ما تقدّم، وما كانت لهم من مواقف، وما تحقق لهم، وما صاروا يطمعون به، إذ نطق بعد رحيل المبعوث رحمة من كان يتحفّظ، ويخاف الكلام، وبرز الخامل الذي ليس له مناقب، فارتفع صوتٌ من كان صوته خافتاً، وتبختر من كان محتفياً، شيطان طلع من مخبئه، دعاكم فاستجبتم له، استنهضكم فأسرعتم لمؤازرته، ورغبكم فوجدكم غضاباً بانتظار دعوته.

وكانت الجملة الرئيسة الأولى في هذا المقطع، هي الجملة الاسمية: «أنتم في رفاهية آمنون وادعون فرحون»، المبتدأ ضمير المخاطبين (أنتم)، وقد تعدّدت أخبار هذا الضمير المنفصل، بالصيغة المشتقة من أسماء الفاعلين ثلاث مرات: آمنون، وادعون، فرحون؛ ثم خبرٌ رابعٌ بصيغة الفعل المضارع، ثم عطفت على الفعل فعلاً آخر، في قولها: «أنتم في رفاهية آمنون وادعون فرحون تتوكفون الأخبار، وتنكصون عند النزال،

حتى أقام الله بمحمد ﷺ عمود الدين^(١).

تتوَكَّفون الأخبار (الوَكْفُ: الإثم والعيب والنقص، وأصل الوكف في اللغة الميل والجور، والتوَكَّفُ: التوقع، ولعلَّ أصله انتظار الوكف)^(٢)، تتوقعون وتتسَقَّطون وتنتظرون وتعرَّضون وتحرِّفون، وفي حديث ابن عمير: أهل القبور يتوَكَّفون الأخبار، أي ينتظرونها، ويسألون عنها، وفي التهذيب: أي يتوقعونها، فإذا مات الميت سألوه: ما فعل فلان؟ وما فعل فلان؟^(٣)، ويقال: واكَّفْتُ الرجلَ مواكفةً في الحرب وغيرها، إذا واجهته وعارضته^(٤).

إذ كنتم تراقبون وتنتظرون بعيدين عن المخاطر، أنتم تنتظرون أن تأتاكم أخبار هلاكنا، وتتوقعون أن تُهْزَمَ ونُغْلَبَ، ويُقْضَى علينا^(٥)، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتْ الْفِئْتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ... إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ...﴾^(٦)، وقد دام هذا منهم حتى تحقق لنبيه إقامة عمود الدين، ونصر عبده وأوليائه، وأجواء نزول سورة الأنفال هي أجواء معركة بدر، إذ إن منافقي المدينة ارتابوا وتردّدوا لما وصلهم خروج قريش في قوّة عظيمة^(٧).

ثم تأتي الجملة الثانوية الأولى بعد الأساسية بأسلوب الشرط وأداته (لَمَّا) التي يقع بعدها الشيء لوقوع غيره: «لَمَّا اختار لنبيه دار أنبيائه.. ظهرت فيكم حسيكة النفاق»،

(١) كشف الغمة: ١١١-١١٢.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ٦/ ١٤٠، لسان العرب: وكف، ٦/ ٤٩٠٨.

(٣) تاج العروس: وكف، ٢٤/ ٤٨٠.

(٤) تهذيب اللغة: ١٠/ ٣٩٥، لسان العرب: وكف، ٦/ ٤٩٠٨-٤٩٠٩.

(٥) شرح خطبة الزهراء للمجلسي: ١٣٤.

(٦) الأنفال: ٤٨-٤٩.

(٧) المحرر الوجيز: ٢/ ٥٣٩.

وفعل الشرط هنا (اختار) وجوابه (ظهرت فيكم) وهما فعلا ناسبيان، أو هي (لما) تعليلية^(١)، علقت ظهور النفاق برحيله ﷺ، فحين اختاره الباري لجواره ظهر النفاق، وعُطِفَ على جواب الشرط خمسة أفعال ماضية، هي: (وسُمِّلَ، ونطقَ، ونبغَ، وهدرَ، فخطرَ)، في قولها:

«فلما اختار الله لنبيه ﷺ دار أنبيائه، ومأوى أصفياه، ظهرت فيكم حسيكة النفاق^(٢)، وسُمِّلَ جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ حامل الأقلين، وهدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم»^(٣).

أمّا العطف السادس فأُسند فيه الفعل (واطلع) إلى الشيطان، «واطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم»، الذي دعا المخاطبين وأغواهم، وهذه هي الجملة الثانوية الثانية، التي هي نواة للربط بالمخاطبين، إذ استجابوا لنداء الشيطان، بدلالة الأفعال: ألفاكم، واستنهضكم، وأحمشكم، في قولها:

«واطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم، ألفاكم لدعوته مستجيبين، وللغرة فيه ملاحظين، ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً، وأحمشكم ألفاكم غضاباً»^(٤).

فكان أن استوليتم على ما ليس لكم، وهذا ما جاءت به الجملة الثانوية الثالثة «فوسمتم غير إبلكم»، التي عُطِفَتْ بالفاء على ما قبلها، وأُتْبِعَتْ بـ «وأوردتموها غير شربكم»، فقد استأثرتن بما ليس لكم، وغصبتن حق غيركم، وأخطأتم في المورد والمشرّب.

(١) الجنى الداني: ٥٩٤.

(٢) كناية عن الحقد والعداوة والبغض، لسان العرب م / حسك.

(٣) كشف الغمة: ١١١-١١٢.

(٤) بلاغات النساء ١٧.

(هذا والعهد قريب) أشارت بـ (هذا) إلى الغضب والاستثثار، وأتبع اسم الإشارة ببيان الحال، أي أنّ هذا الغضب والاستثثار في أسوأ ظرف وحال، تذكره في أربع جمل اسمية متتابعة دالة على ثبوت ما كان يعانيه أهل البيت بعد رحيل رسول الله ﷺ: من تصرّف لا يُناسب مقام رحيل المبعوث رحمة، على الرغم من قرب المصاب، وعظم المعاناة، وسعة الجرح، إذ استجاب المعنيون لداعي الشيطان واتخذوا ما اتخذوه على عجل في ظلّ هذا الظرف العصيب، حتى أنّ النبي ﷺ لم يُوارَ بعد، في قولها:

«هذا، والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لمّا يندمل، والرسول لمّا يقبر، (فوسمتم غير إيلكم، وأوردتم غير شربكم... ابتداراً)»^(١).

معنى بادر وابتدر: عاجل، وأسرع، واستبق، مستعملاً غاية قوته وقدرته على السرعة، أي استعمل ملء طاقته^(٢)، و(ابتداراً) حال من ضمير المخاطبين، وعُذركم فيما اتخذتموه على هذه العجلة، أنكم بادرتم لمنع الفتنة، بعد رحيل المبعوث رحمة للعالمين، لكنّ غصبكم واستثثاركم بما ليس لكم هو الفتنة بعينها، في قولها:

... ابتداراً، زعمتم خوف الفتنة، ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾^(٣)، وتختّم هذا المقطع بالعجب من حالهم وما صاروا إليه، من التخبّط وعدم التبيّن، بثلاث جمل متتابعة، هذا على الرغم من هداية كتاب الله، ووضوح أحكامه وأدلّته، وتتبع جملة (كتاب الله) بأربع جمل حالية، في قولها:

«فهيّاهات منكم! وكيف بكم؟ وأنّى تؤفكون؟ وهذا كتاب الله بين أظهركم، فرائضه واضحة، وزواجه لائحة، وشرائعه نيرة، وأعلامه بيّنة، لكنكم أيها المخاطبون

(١) المصدر نفسه.

(٢) تاج العروس: م / بدر ١٠ / ١٣٧.

(٣) التوبة: ٤٩.

تركتموه، وما أخذتم به، وجعلتموه وراء ظهوركم»، في قولها: «وقد خلفتموه وراء ظهوركم»، ثم تتساءل مستغربة: لماذا أعرضوا عن القرآن، أريدون غيره؟!:

«أرغبة عنه تريدون؟ أم بغيره تحكمون؟» وتجييبهم منكراً ما يقولون، من القرآن نفسه بآيتين: الأولى: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾، والبديل هنا إبليس، وقد اقتبست هذا من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾^(١).
والثانية: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢).

فتختتم هذا المقطع بالحديث عن لبّ الأمر ومداره، والقضية التي يريدون، مستعملةً ضمير الغائبة (ها) في: «تسكن نفرتها، ويسلس قيادها، وتورون وقدها، وتهيجون جمرتها»، كأنها (شبهت الخلافة بالناقة النافرة، التي لا يستطيع أحد ركوبها، وأن الخلافة سرعان ما ستنقاد لكم، وتهدأ الاضطرابات المضادة... وتحكمون الناس...) ^(٣)، لكنكم ستبتعدون بها في إثارة الفتن كما يُنفخ في الجمره حتى تلتهب، وتظاهرون بما لا تعلنون، تتظاهرون بأنكم لا تريدون الحكم والسلطة وقد سارعت إليها مثلما تأكد، كل هذا ونحن آل البيت نصبر على الرغم من الألم والمعاناة، في قولها:

«ثم لم تلبثوا إلا ريث أن تسكن نفرتها، ويسلس قيادها، ثم أخذتم تورون وقدها، وتهيجون جمرتها، وتشربون حسواً في ارتغاء»^(٤)، وتمشون لأهله وولده، في الخمر

(١) الكهف: ٥٠.

(٢) آل عمران: ٨٥.

(٣) شرح خطبة الزهراء للمجلسي: ١٤٦.

(٤) مثل يضرب لمن يظهر أمراً وهو يريد غيره، لسان العرب م/ رغو.

والضراء، ونصبر منكم على مثل حَزِّ المُدى، ووخز السنان»^(١).

المقطع السادس: مقطع الإرث وحجج الوراثة

تستغرب السيدة في بداية هذا المقطع، ما أنكروه من حقوق ثابتة في كتاب الله، وما زعموه من أحكام جاهليّة بعيدة عن النصّ والشرع، وجملة هذا المقطع الرئيسة هي الجملة الاسميّة المبدوءة بـ (أنتم) أيضًا قاصدة الجميع مثلما كان الأمر في المقطع السابق، على الرغم من أنّ الغضب ليس من الجميع، ويتكرّر الاستغراب، بأسلوب الاستفهام وغيره مستنكرة ما يقترفون، لأجل التأمل ومراجعة النفس، في قولها:

«وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾»^(٢)، أيها المسلمون: ألبتّ إرث أبي؟ أفي كتاب أن ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فرياً»^(٣).

وكان الاستغراب والاستفهام في أجواء حوار عقليّ، ينتهي بالتهديد من سوء المصير والعاقبة، وقد تكرر في هذا المقطع -مثلما كان في المقطع السابق- ضمير الغائبة المؤنثة (ها) في عبارة (فدونكها)، متبوعة بلفظين مؤنثين بقاء تأنيث مربوط (مخطومة مرحولة)، والعائد من ضمير الغائبة، (فدونكها): ربّما يُراد بها بحسب السياق: المظلّمة أو الخلافة أو الملك أو حطام الدنيا الزائلة، وربّما يُراد بالدون: الحقير الخسيس، ودونك الشيء: خُذْهُ، ويُقال في الإغراء بالشيء: دونكه^(٤)، وعرضنا في المقطع السابق أنها الخلافة، التي شُبّهت هنا بناقّة مُسرّجة معدّة يجدها الظالم يوم حشره، وهذا مصداق

(١) كشف الغمة: ١١٣ / ٢.

(٢) المائدة: ٥٠.

(٣) بلاغات النساء: ١٨.

(٤) لسان العرب: ١٤٦٠ - ١٤٦١ / ٢.

لقله تعالى: ﴿...وَوَجِدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(١)، وبدلالة الربط بالتضمين الذي ورد من قلله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾^(٢)، وكذلك اسلسهادها بقلله تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾^(٣)، وفي هذا تهديد، ومبالغة في الوعيد، (أي وسوف تعلمون، مستقر ما أنبا القرآن، في الدنيا والآخرة)^(٤)، ومثل هذا ما جاء في نهج البلاغة: «وكفى بالله حكامًا وبرسول الله ﷺ خصمًا وبالقيامة موقفاً»^(٥).

وقد جاء ذلك في نصّ قلها:

«فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك فنعمة الحكم الله والزعيم محمد والموعود القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، و﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾...»^(٦).

وفي كشف الغمة: «ثم أنتم أولاء تزعمون أن لا إرث ليه! ... فزعمتم أن لا حظ لي من أبيه...»^(٧).

أفخصكم الله بآية أخرج نبيه منها؟ أم تقولون أهل ملتين لا يتوارثون؟ أو لست أنا وأبي من أهل ملّة واحدة؟ لعلكم أعلمم بخصوص القرآن وعمومه من النبي ﷺ،

(١) الكهف: ٤٩.

(٢) الجاثية: ٢٧.

(٣) الأنعام: ٦٧.

(٤) مواهب الرحمن: ١٣/٤٥٣-٤٥٤.

(٥) الخطبة الخامسة د. صبحي الصالح: ٥٢، والاحتجاج للطبرسي: ١/٢٤٣.

(٦) بلاغات النساء: ١٨، ٢١، والمناقب لابن مردويه: ٢٠٣.

(٧) كشف الغمة: ٢/١١٣.

﴿أَفْحَكَمَ الْجَاهِلِيَّةُ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(١) أَغْلِبُ عَلَى
إِرْثِي جَوْرًا وَظُلْمًا؟ ﴿...وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(٢)

ثم تستشهد لثبوت التوارث في التشريع من الكتاب، بخمس آيات من القرآن
الكريم، في قولها: ﴿... تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم﴾، إذ يقول: الله
تبارك وتعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾^(٣)، وقال الله ﷻ فيما قصّ من خبر يحيى بن
زكريّا: ﴿هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾^(٤)، وقال عزّ ذكره:
﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾^(٥)، و﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي
أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾^(٦)، و﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾^(٧).

وبعد الحجج القرآنية تتعجب من نسبتهم ما يخالف القرآن الكريم إلى والدها ﷺ،
في قولها:

«سبحان الله! ما كان أبي رسول الله ﷺ عن كتاب الله صادقاً»، (فقد استعظمت
هذا الافتراء على مقام أبيها... إنّ النبيّ أجَلّ وأعظم من أن يخالف كلام الله... تأتون
بالزور والكذب والبهتان، وتدّعون بأنه لا يورث).^(٨)

(١) المائدة: ٥٠.

(٢) الشعراء: ٢٢٧.

(٣) النمل: ١٦.

(٤) مريم: ٥-٦.

(٥) الأنفال: ٧٥.

(٦) النساء: ١١.

(٧) البقرة: ١٨٠.

(٨) شرح خطبة الزهراء للمجلسي: ٢٠١-٢٠٢.

أمّا خطاب (وليّ الأمر): فقد بدأت بمناداته، لكنّها لم تنادِه باسمه، بل نادته بأبيه الذي تأخّر إسلامه، وقد أسلمَ يوم الفتح، في قولها: (يا بنَ أبي قُحافة)، فلا تذكره بسابقة ولا فضيلة ولا بكنية ولا بلقب، ولا حتى بصفة من صفاته، بل بكنية أبيه، و(القُحْفُ) و(القُحْفَةُ): المتلُم من القدح أو القُصْعَة، [واستعمال الكلمة بلهجة أهل العراق بالدلالة نفسها، لكن بتغيير نطق القاف].^(١)

وبعد المنادة تستفهم منكرة ما جاء به، مؤكّدة عِظَم الافتراء، في قولها:

«يا بنَ أبي قُحافة: أفي كتاب الله أن ترثَ أباك ولا أرثُ أبي؟ لقد جئت شيئاً فرياً!»

ثمّ تستفهم مرّة أخرى عن تعمّد تجاوزِ كتابِ الله، وتركه الحُكْم بحسبه، فبعد الأدلّة القرآنيّة الخمسة احتجت بأبيها ﷺ وابن عمّها الإمام ﷺ، وردّت الاحتمالات البعيدة التي قد يستدلّ بها المخالف والمعاند، في قولها: «وزعمتم أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي، أفخصّكم الله بآية أخرج منها أبي ﷺ! أم تقولون: أهل ملتين لا يتوارثان، أو لست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمّي!»^(٢).

ويعرض ابن أبي الحديد الاعتراض على رواية حديث (لا نورث)، في قوله: «وهذا عليّ وفاطمة والعباس مازالوا على كلمة واحدة يكذبون الرواية: نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ويقولون: إنها مختلفة، قالوا وكيف يُعرّف النبي ﷺ هذا الحكم غيرنا ويكتمه عنّا ونحن الورثة، ونحن أولى الناس بأن يؤدّي الحكم إليه...»^(٣).

(١) تاج العروس: ٢٣٧/٢٤-٢٣٨.

(٢) كشف الغمة: ١١٣/٢.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٩/٢٧٤.

ومع أن الأولى بسماع رواية هذا الحديث هم أهل بيته عليه السلام ولا سيما ابنته؛ لأنهم محل ابتلاء مؤداه، وهم بحاجة إلى معرفة حكمه، فكان على النبي صلى الله عليه وآله أن يبلغهم به، لا أن يقوله لمن لا يرث من النبي شيئاً! ذلك على الرغم من مخالفة هذا الحديث لصريح القرآن، حيث نصّ على توريث الأنبياء لورثتهم مثلما عرضت من نصوص القرآن الخمسة.

وبعد يأسها عليه السلام من الاستجابة للحجج القرآنية أحالت على الجزاء العادل يوم الحساب على يدي أعدل الحاكمين، في قولها له: «فدونكها مخطومة مرحولة، تلقاك يوم حشرِك، فنعم الحكمُ الله، والزعيمُ محمدٌ صلى الله عليه وآله، والموعد القيامة، وعند الساعة يَحْسُرُ المبطلون، ولا ينفعكم إذ تندمُون، ولكلُّ نَبأٍ مستقرٌّ، فسوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يخزيه، ويحلُّ عليه عذابٌ مقيم»^(١).

وينقل عنها بعد هذه الخطبة أنها قالت لمن زارها من النساء: «أصبحت عائفة لدنياكم، قالية لرجالكم، لفظتهم بعد أن عجمتهم... فقبحاً لفلول الحدّ وخور القناة، وخطل الرأي، وبئسما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم، وفي العذاب هم خالدون، لا جرم قد قلدتهم ربقتها، وشتت عليهم غاراتها، فجدعاً وعقرًا، وسحقاً للقوم الظالمين، ويحهم أين زحزحوها عن رواسي الرسالة، وقواعد النبوة، ومهبط الروح الأمين، والطيبين بأمر الدنيا الدين، ألا ذلك هو الخسران المبين! وما الذي نقموا من أبي حسن! نقموا والله نكير سيفه، وشدة وطأته، ونكال وقعته، وتنمره في ذات الله»^(٢)، قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾^(٣)، والنقمة: الكراهية والكران إمّا باللسان وإمّا بالقوبة^(٤).

(١) المناقب لابن مردويه: ٢٠٣، كشف الغمة: ١١٣/٢.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٣٦٠/١٦.

(٣) البروج: ٨.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن: ٦٩٣.

المقطع السابع: مقطع استنصار الأنصار

خاطبت الأنصار بنبرتي خطاب، الأولى خطاب الفضل والتقدير لما لهم من سابقة في النصر، واحتضان الإسلام، والثانية اللوم والتقريع للتغير والانقلاب، والغفلة وعدم الاستجابة والخذلان، ويتضح هذا من بدئها بجملة النداء، التي أضيف المنادى (معشر) إلى (النقية) بعده، وعطف على هذا المنادى مثله مرتين، من مضاف ومضاف إليه لغاية المدح نفسها، في قولها:

«يا معشر النقية، وأعضاء الملة، وحضنة الإسلام»، وكان الجواب والغاية من ندائها جمليتي استفهام إنكاري: «ما هذه الغمزة في حقي؟ والسنة عن ظلامي؟»

ثم تستأنف بلهجة أخرى قائلة: «إيها بني قيلة! أهضم ثراث أبي؟!». (١)

وتؤكد في اللهجتين والخطابين تغافلهم، وتهاونهم، وتعجلهم، وكان الأولى أن يراعوا حرمة رسول الله في حياته ومماته، وأن يتمسكوا بوصاياه، فتعجب من إحداثهم وتعجلهم، ومن كل الذي بدر منهم: «لأن مات رسول الله ﷺ؟ وهذا أمر جلل، وهو معلوم عندهم أخبر به الباري ﷻ في كتابه الكريم الذي يقرأ بينهم فلم هذا التغير؟! في قولها:

«المرء يحفظ في ولده، سرعان ما أحدثتم فأكدتكم، وعجلان ذا إهالة، أنزعمون مات رسول الله ﷺ؟! فخطب جليل، استوسع وهنه، واستنهر فتقه، وفقد رائقه، وأظلمت الأرض لغيبته، واكتأبت خيرة الله لمصرعه، وخشعت الجبال، وأكدت الآمال، وأضيع الحريم، وأذيلت الحرمة، وتلك نازلة أعلن بها كتاب الله في أفئيتكم، في ممساكم ومصبحكم، يهتف في أسماعكم وقبله حلت بأنبياء الله ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ

إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١﴾.

وكان الأولى أن تكون هذه النازلة الكبرى والمصيبة العظمى سبباً لثباتهم على كتاب الله الذي أخبرهم بما سيكون فكان، وعليهم الأخذ به، لكنهم ما اتعظوا ولا ارعوا، إذ استتبع هذا الحادث الجلل سرعة التغير في اهتضام تراث النبوة، والابتعاد عن آل البيت، استناداً إلى حديث «لا نُورث ما تركناه صدقة».

ذكر الأمدى (ت ٦٣١هـ) في الانفراد بذكر حديث (لا نُورث) وسكوت الآخرين، أنّ الخلاف في قبول الرواية غير المجمع عليها، كالرواية عن الواحد وسكوت الباقيين أو عدم سكوتهم، قوله: «ما أخبروك عن أصحاب محمد، فاقبله، وما أخبروك رأيهم فألقه في الحش [كناية عن الخلاء]، وقال مسروق لا أقيس شيئاً بشيء، أخاف أن تزلّ قدمٌ بعد ثبوتها، وكان ابن سيرين يذمّ المقاييس، ويقول: أول من قاس إبليس، ومع هذه الإنكارات من الصحابة والتابعين فلا إجماع، ولو سلمنا أنه لم يظهر النكير في ذلك، لكن لا يلزم منه سكوت الباقيين على موافقة، لما ذكر في الإجماع، سلمنا عن موافقة لكنه لا حجة إجماع الصحابة، وكيف يُقال بذلك وقد تجبروا وتأمروا وجعلوا الخلاف طريقاً إلى أغراضهم الفاسدة، حتى جرى بينهم ما جرى من الفتن والحروب، وتألبوا على أهل البيت، وكتبوا النصّ على عليٍّ عليه السلام وغصبوه الخلافة، ومنعوا فاطمة إرثها من أبيها، المنصوص عليه في كتاب الله، برواية انفرد بها أبو بكر وعدلوا عن طاعة المعصوم، المحيط بجميع النصوص الدالة على جميع الأحكام الشرعية، إلى غير ذلك من الأمور التي لا يجوز معها الاحتجاج بأقوالهم، وهذا ممّا أورده الرافضة).^(١)

(١) آل عمران: ١٤٤.

(٢) الأحكام للآمدى: ٤/٤٨.

الفصل الثاني

ثنائية الأنا والآخر في الخطبة

تمهيد

يتضح من النص ومداره الدلالي أنّ سيدة النساء في شأن يخالف شأن المخاطبين، وغاية الخطبة إظهار الفارق بين الشائين، وتبيين ما حدث من الطرفين وللطرفين، إذ الإحالة على المقصود المعني بالخطبة، ومعه أو يتبعه ويؤافقه، أو سكت على فعله؛ ففي جهتي الخطاب: المتحدثة ويقابلها المخاطبون، في تعالق ما كان لهم، وما كان عليهم، بالوقائع التي تشير إليها بنية النصّ، وقد أثر هذا التعالق في تنظيم تتابع عرض الأحداث، ومحورها إبراز ما حدث قبل الحدث الأكبر «رحيل المبعوث رحمة للعالمين»، وما جرى بعده من أحداث عظام، على وفق ما يناسب هذا الترتيب، أي على نظم الأحداث، وما كان قد تمخض عنها، فالجمل عبّرت عن وقائع، وقد أشارت إلى الثوابت والمتغيرات وبيّنت الفارق والتنافر والاختلاف، إذ أظهرت انسجامًا داخليًا في عرض أجزاء النصّ بعضه مع بعض من جهة، وبما جرى ويجري، وما يُنتظر من جهة أخرى، فهي تحيل على ما كان، وتحيل على المشاهد الحاضر الموجود، وكذلك على ما سيكون في المستقبل القريب والبعيد، وتنظم كلّ ذلك بنية كليّة بمجموعة العلاقات الظاهرة والمخفية لترابطه.^(١)

إنّ الانطلاق من الظواهر اللغويّة لهذا الخطاب، ومن معرفة نسيجه وسماته الأسلوبية، وإخضاع ما تفصح عنه هذه الظواهر والسمات، وكذلك من جملة سياقات أفعاله التواصلية والإنجازيّة، التي يمكن بحسبها استخراج الأحكام الموضوعية التي

(١) بنية الحجاج، بحث د. فاطمة: ٢٣٨.

تسمح بفك لغز هذا النصّ، الذي ربما يكون معمّي.

وهنا أقول: إنّ التعرّف على الثنائيّة، (ثنائيات الأنا والآخر)، قد يساعد على تحليل النصّ تحليلاً قريباً من الدقّة، يخرج النص من المحتملات والافتراضات النظرية، إلى التطبيق بإحصاء تكرار هذه الثنائيات، التي قد تثبت بالممارسة العملية النتائج التي يدلّ عليه هذا التكرار.^(١)

فلا بُدّ إذن من تأمل البناء اللفظي للتكرار، وكذلك الروح التي كانت وراء ما ظهر منه بالمرّات العددية، في تأمل نظم تكرار الضمائر المعبّرة عن هذه الثنائيات في النص وأثر ذلك في بنائه ومضمونه، وصلته بالسيدة وبالمخاطبين، من حيث الذات والمنطق والموضوع، ومن حيث تمييز ما بين الفريقين من تفاوت، وما ظهر من صراحة العبارات وإيماءاتها.

(١) اللسانيات وتحليل النصوص: ٢٧٧.

المبحث الأول

عود الضمائر على سيّدة النساء

أرادت من تكرار الضمائر (أنا، أبي، نحن...) الحثّ على وعي مضمون خطابها، وغلق أبواب الاحتجاج التي سعت إلى تضييع مقامها ونسبها، وردّ الإجراءات التي اصطنعت لتجاهلها، وإزالة الصدا عن العقول، التي صدّت عنها وعن أهل بيتها، ولا سيما الإجراءات التي سارعوا إليها بعد الحدث الأكبر وفاة والدها، وأن تخزي تهافت التدابير التي جفتها، وتستنكر الأفعال التي تقلّل من شأنها.

فكانت هذه الضمائر الوسيلة التي استعانت بها على إظهار الخصوصية التي تميّز مكانتها، وبها قد دلّت على نفسها بنفسها، في مواجهة الآخر الذي تغاضى عنها، وتغافل عمّا لها.

ومن أهميّة إعادة الضمير أن دار أحد تعاريف (علم النصّ) الحديث بمداره، في قولهم: «إنّه تتابعٌ مشكّلٌ من خلال (تسلسل ضميريّ متصل) لوحداته اللغويّة».^(١)

وسنحاول في بعض ما سنعرض «بعد قليل» ربط نصّ الخطبة بنصوص القرآن الكريم وغيره، لإظهار مواضع التنصيص الشريف، ولإظهار دلالات سياق نصّ الخطبة بالضمائر، وقد وردت الضمائر التي تعود على السيدة في نصّ الخطبة في المواضع الآتية، في قولها:

(١) مدخل إلى علم النص: ٥٥.

١. «أشهد أن أبي محمداً عبده ورسوله»^(١)، وقد نفى الخالق سبحانه وتعالى أبوة النبي ﷺ لأي رجل من رجال الأمة في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾^(٢)، وهذا هو الذي قصدت وأرادت، أرادت إظهار الشأن الكبير الذي لها والخصوصية التي تميّزها.

٢. «أنار الله ﷻ بأبي محمد صلى الله عليه ظلمها»^(٣)، والنور المنسوب إليه ﷺ لتعظيم شأنه، وقد ورد في عدة آيات منها قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾^(٥).

٣. «قبض الله نبيه ﷺ قبض رافة واختيار، رغبة بأبي عن هذه الدار»^(٦)، وورد القبض في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيرًا﴾^(٧)، (يريد لطيفاً)^(٨)، و(وصف القبض بيسير تلميحاً إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾^(٩)... فهذان المحملان في الآية من معجزات القرآن العلمية)^(١٠).

(١) السقيفة وفدك: ٢ / ١١٠.

(٢) الأحزاب: ٤٠.

(٣) السقيفة وفدك: ٢ / ١١١.

(٤) المائدة: ١٥-١٦.

(٥) الأحزاب: ٤٥-٤٦.

(٦) بلاغات النساء: ٢٠.

(٧) الفرقان: ٤٦.

(٨) المحرر الوجيز: ٤ / ٢١٢.

(٩) ق: ٤٤.

(١٠) التحرير والتنوير: ١٩ / ٦٦.

٤. «صَلَّى الله على أبي نبي الرحمة، وأمينه على وحيه، وصفيه من الخلائق، ورضيه»^(١)، ووصف السيدة لأبيها بالرحمة والأمانة والاصطفاء والرضا استعارته من القرآن الكريم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢)، ففي الآية (وصف جامع لبعثة محمد ﷺ... كونها رحمة للعالمين)^(٣)، ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾^(٤)، (والأمين الذي يحفظ ما عهد له به).^(٥)

٥. «إطاعتنا نظاماً للملة، وإمامتنا أماناً للفرقة»، تشير إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(٦).

٦. «أيها الناس اعلّموا أنني فاطمة، وأبي محمد، أقول عوداً على بدءٍ، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً»^(٧)، والشطط: الجور وتجاوز الحدّ ومجاوزة القدر، والقول البعيد عن الحق^(٨)، قال تعالى: ﴿لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾^(٩).

٧. «فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نساءكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم»^(١٠)، وقد تكررت مؤاخاة عليّ عليه السلام، قبل الهجرة وبعدها، ومصادقه ما يروى من حديث بشأن

(١) بلاغات النساء: ٢٠.

(٢) الأنبياء: ١٠٧.

(٣) التحرير والتنوير: ١٧ / ١٢١.

(٤) التكويد: ١٩-٢١.

(٥) التحرير والتنوير: ٣٠ / ١٣٨.

(٦) النساء: ٥٩.

(٧) بلاغات النساء: ٢٠، دلائل الإمامة: ١١٥.

(٨) مفردات ألفاظ القرآن: ٣٦٢، والدر المصون: ٤ / ٤٣٩.

(٩) الكهف: ١٤.

(١٠) كشف الغمة: ٢ / ١١١-١١٢.

نزول قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١)، ويُنسب إليه ﷺ على منبر الكوفة: «أنا عبد الله وأخو رسول الله، لم يقلها قبلي، ولا يقولها أحد بعدي إلا كذاب أو مفتر»^(٢)، وكذلك ما ذكره ابن كثير عن معركة بدر: «برز عتبة وشيبة والوليد بن عتبة، وبرز إليهم حمزة وعبيدة وعليّ، فقالوا: تكلموا نعرفكم، فقال حمزة: أنا أسد الله، وأسد رسول الله، أنا حمزة بن عبد المطلب، فقال: كفاء كريم، وقال عليّ: أنا عبد الله وأخو رسول الله...»^(٣)، وقوله ﷺ: «أنت أخي في الدنيا والآخرة»^(٤).

٨. «أَنْقَذَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى بِأَبِي مُحَمَّدٍ ﷺ، بَعْدَ اللَّيْتِ وَالْتِي»^(٥)، قال تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا﴾^(٦).

٩. «تَرَبُّصُونَ بِنَا الدَّوَاتِرَ!»، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَالِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ... مُدْبِذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ...﴾^(٧).

١٠. «نَصَبُكُمْ عَلَى مِثْلِ حَزِّ الْمُدَى».

١١. «أَنْتُمْ الْآنَ تَزْعُمُونَ أَنْ لَا إِثْرَ لَنَا».

١٢. «قَدْ تَجَلَّى لَكُمْ كَالشَّمْسِ الضَّاحِيَةِ أَنِّي ابْنَتُهُ».

(١) الشعراء: ٢١٤.

(٢) كتاب سليم بن قيس: ٤٣١، وكنز العمال للمتقي الهندي، رقم الحديث ٣٦٤١٠، ١٣/ ١٢٩.

(٣) البداية والنهاية: ٣/ ٣٣٤.

(٤) المستدرک: ٣/ ١٤.

(٥) كشف الغمة: ٢/ ١١٢.

(٦) آل عمران: ١٠٣.

(٧) النساء: ١٤١، ١٤٣.

١٣. «أيّها المسلمون: أأغلب على إرثي»!.

١٤. «أفي كتابِ الله أن ترثَ أباك ولا أرثُ أبي؟!

لقد جئتُ شيئاً قريباً!».

١٥. «زعمتم أن لا حظوةَ لي، ولا إرثَ من أبي...

أفخصّكم اللهُ بآيةٍ أخرجَ أبي منها؟».

١٦. «أو لستُ أنا وأبي من أهلِ ملةٍ واحدة؟!

أم أنتم أعلمُ بخصوصِ القرآنِ وعمومِهِ من أبي وابنِ عمّي».

١٧. «ما هذه الغَمِيزَةُ [النقيصة] في حقي؟ والسَّنةُ [الغفلة] عن ظلامتي؟ أما كان

محمّدٌ ﷺ أبي يقول: المرءُ يحفظُ في وَلَدِهِ».

١٨. «لكم طاقةٌ بما أحاولُ!، وقوّةٌ على ما أطلبُ وأزاولُ».

١٩. «أأهضمُ ثُرأتَ أبي؟! وأنتم ذوو العَدَدِ والعُدّةِ والأداءِ والقوّةِ».

٢٠. «وأنتم موصوفون بالكفاح، ومعروفون بالخيرِ والصلاحِ، والنُّخبَةِ التي

انتُخبْتُ، والخَيْرَةِ التي اختِيرَتَ لنا أهلُ البيتِ... قاتلتُم... وناطحتُم... وكافحتُم...

لأنبرُحُ أو تبرحون، نأمُرُكم فتأثمرون».

٢١. «حتّى إذا دارت بنا رحي الإسلام، ودرّ حلبُ الأيّام، وخضعت نعرَةُ الشوكِ،

وسكنت فورةُ الإفك، وخمدت نيرانُ الكُفرِ وهدأت دعوةُ الهرج، واستوسق نظامُ

الدين، فأنتى حرتم بعد هذا البيان؟ وأسررتُم بعد هذا الإعلان؟ ونكصتُم بعد الإقدام؟

وأشركتُم بعد الإيمان؟».

٢٢. «ألا قد أرى أن قد أخلدتُم إلى الخَفَضِ، وأبعدتُم من هو أحقُّ بالبسطِ

والقبض»^(١)، أي أنكم ابتعدتم عن أمير المؤمنين عليه السلام، ويوضح هذا ما جاء في بحار الأنوار: «إنكم تركتم الإمام بالحق وخلعتم بيعته من رقابكم.... لعلمكم بأن أمير المؤمنين عليه السلام لا يتهاون، ولا يُداهن في دين الله، ولا تأخذه في الله لومة لائم، ويأمركم بارتكاب الشدائد في الجهاد وغيره، وترك ما تشتتهون من زخارف الدنيا، ويقسم الفيء بينكم بالسوية، ولا يفضل الرؤساء والأمرء...»^(٢).

٢٣. «ألا وقد قلت الذي قلت على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم، ولكنها فيضة النفس، ونفثة الغيظ، وخور القنا، وبثة الصدر، وتقديم الحجة»^(٣)، قال تعالى: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿... أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾^(٥).

٢٤. «أنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فاعملوا إننا عاملون، وانتظروا إننا منتظرون»^(٦)، قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اْعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾^(٧) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ^(٨). [انتهى تعداد مواضع عود الضمائر على الزهراء]. يتضح مما تقدم:

أنها كررت أكثر من (أربع وأربعين مرة) ما يعود عليها من الضمائر المباشرة وغيرها، وبـ(عشرين صيغة) لأجل التلوين، وتجديد الخطاب، وتنشيط التفاعل والتجاوب،

(١) كشف الغمّة: ٢ / ١١٥.

(٢) بحار الأنوار: ٢٩ / ٢٩٣.

(٣) دلائل الإمامة: ١٢٢، كشف الغمّة: ٢ / ١١٥.

(٤) الفرقان: ٢٩.

(٥) يوسف: ٨٦.

(٦) دلائل الإمامة: ١٢٢.

(٧) هود: ١٢١-١٢٢.

وهي:

ياء المتكلم: (أبي): ثلاث عشرة مرة. و(ابن عمي) مرة واحدة، و(إني): مرتين.

و(لي) و(مني) و(حقّي) و(ظلامتي): مرة واحدة.

و(أنا) للمتكلم المفرد: مرتين.

و(نا) للمتكلمين: ستّ مرات.

و(لنا): مرتين. و(بنا): مرة واحدة.

و(أقول) و(قلت): خمس مرات.

و(أرث) و(أغلب) و(أحاول) و(أزاول) و(أهضم): مرة واحدة.

و(نصبر) و(نبرح) و(نأمركم): مرة واحدة.

ويتأكد من قصد هذه الضمائر أنّ الزهراء عليها السلام وأباها وبعلمها في جهة، وأنّ المخالفين المخاطبين في الجهة الأخرى، بدليل التكرار بالصيغة المنفرة التي تدلّ عليها وحدها، وما يدلّ عليها وعلى أبيها عليه السلام وابن عمّها عليه السلام.

الزهراء وذكر نسبتهما إلى والدها في النص:

ورد هذا الذكر بصيغة (أبي) ثلاث عشرة مرة، مثلما عرضنا قبل قليل، ومنها ما أتبع بـ (أبي محمد) في موضعين في سياق الاحتجاج والتوكيد.

أمّا الذكر بلفظ اسمه أو صفته ففي إحدى وعشرين مرة.

منها بصفة (الرسول عليه السلام) في خمسة مواضع.

وبالاسم العلم (محمد عليه السلام) أربع مرّات.

وبصفة (النبي ﷺ) ثلاث مرّات.

وب (صفيّه) مرّتان.

وبصفته (أمينه، وخيرته، ورضيّه) لكلّ مرة واحدة.

كلّ ذلك التكرار لتذكير المخاطبين وتنبيههم من غفلتهم على أنّ هذا الخطاب من نهل وحي الرسالة «اعلموا أنّي فاطمة وأبي محمد! أقول عودًا وبدءًا، ولا أقول ما أقول غلطًا، ولا أفعل ما أفعل شططًا»؛ ذلك إلى جانب عرضها أفضال النبي ﷺ التي ينعمون بسببها، والتي لن تدوم ما داموا قد جحدوا حقّها وحقّ أهل بيت النبوّة، لهم ولن يوافقهم من المخاطبين، واللاحقين من المتابعين، قاصدين، أو غافلين، أو مقلّدين.

وفي هذا الذي قصدت ربط بدليل الثبات، ثبات الذات المتماهية بأبيها المبعوث رحمة، ولم يكن ذلك إلّا على القرآن الكريم، وتذبذب الآخر وتغيّره، الذي انهدم عنده البناء، الذي ترك ما ابتناه الرسول ﷺ، ويدعم هذا ويقوّيه أنّها:

١. أدانت الآخر الذي هو مجموع المخاطبين، ولا شأن لهم بفدك، وقد انفراد (وليّ الأمر) برواية نفي الإرث.

٢. استغربت موقف المخاطبين لتراجعهم عمّا كانوا عليه في عهد رسول الله ﷺ، في قولها ﷺ فيهم: «الخدلة التي خامرتكم، والغدرة التي استشعرتها قلوبكم... لكم طاقة بما أحاول! وقوة على ما أطلب وأزاول!».

٣. عرضت الأدلة التي هي أبعد من الحصول على الحقوق الشخصية المادّية المحدّدة، بدليل قولها: «فأنتي حرّمت بعد هذا البيان؟ وأسرّرت بعد هذا الإعلان؟ ونكصّتم بعد الإقدام؟ وأشركتم بعد الإيمان؟».

٤. أسمعت المخاطبين موقفها الأخير من تهاونهم وخذلانهم ومخالفتهم، وبوحها

بما في نفسها من غيظ وغضب ويأس من تحوّلهم، في قولها: «ألا قد قلتُ ما قلتُ على معرفةٍ مِنِّي بالخذلة التي خامرتكم، والغدرة التي استشعرتها قلوبُكم، ولكنها فيضة النفس، ونفثة الغيظ، وخورُ القنا، وبثّة الصدر، وتقديمُ الحُجّة».

٥. أكّدت ما لا يُعقل أن يُتجاهل، أكّدت أنها ابنةُ رسولِ الله ﷺ، كأنهم صاروا لا يعرفون من هي؟! وقد ابتعدوا عن مسار ما أسسه والدها نبيهم ﷺ.

٦. تجنّبت تعيينَ فدكٍ أو غيرها سبباً للخلاف، فلا نجد ذكراً لإرثٍ محدد، بل الإرث العام.

٧. أثبتت جحودَ المقابل لها، والصادَّ لحقوقها الذي لم يكن فرداً واحداً، بل هو الآخرُ المتمثل بالمجموع العام المؤلّف من المخاطبين في المجلس، من المالمئين أو الساكتين على الجور.

٨. أخرجتِ المخاطبين وضايقتهم بهذا التكرار، وكأنّ في التكرار الصرخة التي يُراد منها لفت الانتباه، والضربة التي تشدّ النصّ بعضه إلى بعض، والمفتاح الذي له الثقل التكراري والتوزيعي الذي يفتح مغاليق ما كان يُصنع من غموض، ومحور تدار بمداره الحجج والأدلة^(١)، بدليل قصدها التكرار: «أقولُ عوداً وبدءاً [أو عوداً على بدءٍ]...».

أقولُ: إنّ عامّة القوم عبّروا بصمتهم، وسكوتهم على ما دُبّر وجرى، فأوجب ذلك الصمتُ التكرارَ، وسوّجَ تأكيدَ الذات، وإثبات الصلّة المباركة، بالرسول الكريم ﷺ، حتى أنّها فيما يبدو للمدقق أحسّت أنّهم صاروا لا يتحمّلون ذكرَ صلتها، ومكانتها، وفضلها، وفضيلتها، ولم يَمْضِ على رحيل والد الزهراء ﷺ سوى الأيام، تبعته بعدها^(٢).

(١) الأسلوبية الرؤية والتطبيق: ١٨٠.

(٢) ينظر: نهاية التحقيق: ١٠٠.

المبحث الثاني

المخاطبون في الخطبة

ميّزت الخطبة بين ثلاث فئات من المخاطبين:

عامة الحضور، وليّ الأمر، الأنصار.

واستناداً إلى هذه الفئات، وهذا التقسيم يمكن أن نعيد النظر في تقسيم الخطبة بحسب هذا المدخل المضموني، إلى مقدّمة وثلاثة وأجزاء: يبدأ كلّ جزء بأسلوب نداء:

الجزء الأول: «أنتم عباد الله نصبُ أمره ونهيه...»^(١)... بتقدير: يا عباد الله.

ويتكرّر النداء في هذا الجزء بـ «أيها الناس اعلموا أنني فاطمة...»^(٢).

ويتكرّر مرة ثالثة: «أيها المسلمون أأغلب على إرثي...»^(٣).

الجزء الثاني: جزء (ولي الأمر): «يا ابن أبي قُحافة»^(٤).

الجزء الثالث: جزء الأنصار: «يا معشر النقيبة، وأعضاء الملة، وحضنة

الإسلام...»^(٥).

(١) بلاغات النساء: ٢٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) دلائل الإمامة: ١١٨.

(٥) بلاغات النساء: ٢١.

وتكرّر نداء الأنصار، لكن بلهجة مختلفة «مثلاً قلنا»، لهجة فيها شدة وتعبير عن عدم رضا: (أبني قَيْلَة) [أيها بني قَيْلَة]^(١)، وأداة النداء الهمزة، بمعنى: يا بني قيلة. وأسلوب النداء تقنيّة حواريّة، يُعبّر بها عن تفعيل الخطاب، وتنبيه المخاطبين، وتنويع التواصل بين المناادي من جهة، والمنادى من جهة أخرى.

ويتضمّن كلّ جزءٍ من الأجزاء السابقة التعريف بنفسها ﷺ:

ففي الجزء الأوّل:

«اعلموا أنّي فاطمة وأبي محمد...»^(٢).

وفي الجزء الثاني: «أولست أنا وأبي من أهل ملّة واحدة، أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي»^(٣).

وفي الجزء الثالث: «أما كان رسول الله أبي يقول: المرء يحفظ في ولده»^(٤).

ويتضمّن كلّ جزءٍ من هذه الأجزاء ذكراً للإرث العام:

الجزء الأول: «أنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا... أأغلبُ على إرثي؟!»^(٥).

الجزء الثاني: «أبى الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟!»^(٦).

الجزء الثالث: «أأبتز إرث أبي؟!»^(٧).

(١) كشف الغمة: ١١٣/٢.

(٢) بلاغات النساء: ١٨.

(٣) بلاغات النساء: ٢١.

(٤) بلاغات النساء: ٢١.

(٥) بلاغات النساء: ١٨.

(٦) كشف الغمة: ١١٣/٢.

(٧) كشف الغمة: ١١٣/٢.

وقد خُتِمَ الجزء الثاني والثالث بأسلوب الإغراء، وفي الإغراء دعوة للزوم ما يُحِبُّ الإنسان، لكنها ﷺ عدلت عما يدلُّ عليه هذا الإغراء، فأرادت به ضدَّ معناه ودلالته، أرادت الأخذ بالمكروه وليس المستحب، كأنَّ المخاطب استحقَّ ما اختار، وأخذ ما أراد لآخرته؛ لأنَّه كان مُصِرّاً معانداً؛ وذلك في قولها له في الجزء الثاني: «فدونكها مخطومة مرحولة، تلقاك يومَ حشرِك»^(١)، بمعنى خذها، خُذْ ما يقابل ما استحوذت عليه في الدنيا، خذ ما ظلمت بحكمك بغير القرآن، وهذا أسلوب خطاب استعارت فيه طلب حصول الفعل من صيغة اسم الفعل (دونك) الذي دلالته أقوى من دلالة الفعل، وأبلغ منه وأكد وأسرع^(٢)، وقد أرادت به الإزاحة وشدة التقرُّيع، أي على معنى نقيض الإغراء وضده، أي التحوُّل بالمعنى من المرغوب به إلى المكروه، وهذا يشبه أسلوب ما ورد في القرآن الكريم: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٣)، (هذا الكلام على سبيل التهكم وهو أغبط للمستهزأ به).^(٤)

وقولها في الجزء الثالث للمجموع المداهن أو الساكت: «فدونكموها، فاحتقبوها، دَبْرَةَ الظَّهْرِ، نَقَبَةَ الْعَارِ، موسومةٌ بغضبِ الله، وشنار الأبد...»^(٥). بمعنى خذوا الدنيا، ورغد العيش، وتبعة الغدر والظلم ونكران الحقوق...

أمَّا عود الضمائر على المخاطبين فورد فيها يأتي:

أولاً: عامة الحضور: خاطبتهم ﷺ بقولها: «أنتم عباد الله نصبُ أمره ونهيه،

(١) كشف الغمة: ١١٣/٢.

(٢) معاني النحو: ٤٢٢/٤.

(٣) الدخان: ٤٩.

(٤) الدر المصون: ١١٨/٦.

(٥) كشف الغمة: ١١٥/٢، وينظر: لسان العرب: ١٤٦١/٢.

وحملة دُينِه ووحيه، وأمناءُ الله على أنفسِكُم، وبلغاؤُه إلى الأمم»^(١).

ثم ذكّرتهم بما استخلفه ﷺ فيهم: في قولها: «وزعيمُ حقٍّ له فيكم، وعهدٌ قدّمه إليكم، وبقيةٌ استخلفها عليكم، كتابُ الله الناطق، والقرآن الصادق... بينةٌ بصائرُه، منكشفةٌ سرّائره، متجليةٌ ظواهره، مغتبطٌ به أشياعُه، قائدٌ إلى الرضوان أتباعه، مؤدٌّ إلى النجاة استماعه، به تُنالُ حججُ الله المنورة، وعزائمُه المفسّرة، ومحارمُه المحذّرة، وبيّناتُه الجالية، وبراهينه الكافية، وفضائلُه المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة»^(٢)، والمرجع لفقرة الاستخلاف حديث الثقلين المشهور، المروي عن الفريقين، «إنّي أوشك أن أدعى فأجيب، وإنّي تارك فيكم الثقلين، كتاب الله جبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، وإنّ اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»^(٣).

ثم تقول: «أيها الناس اعلموا أنّي فاطمة وأبي محمد...»، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، «فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نساءكم، وأخا ابن عمّي دون رجالكم...» ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾^(٤)... «أذلةٌ خاسئين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله بأبي ﷺ...»^(٥).

ثالثاً: خطاب الأنصار: وقد توجهت إليهم، ونادتهم ابتداءً بما يميزهم، ويرفعهم،

(١) بلاغات النساء: ٢٠.

(٢) بلاغات النساء: ٢١، ودلائل الإمامة: ١١٣-١١٤.

(٣) الجامع الصحيح للترمذي: ٥/٦٦٣، ومسند أحمد: ٣/١٤-١٥، وصحيح مسلم: ٩١٠، حديث ٦٢٥١.

(٤) آل عمران: ١٠٣.

(٥) كشف الغمة: ٢/١١١-١١٢.

وبما يحبون، وبما يعلي مقامهم، لما سبق لهم من مواقف، ولاسيما المواقف الكبيرة التي كانت لهم في نصرته النبي ﷺ، نادتهم بالنقابة التي كانت لهم في ليلة العقبة، فكان النقباء كلهم من الأنصار^(١)، قالت: «يا معشر النقيية، وأعضاء الملة، وحضنة الإسلام»، ثم استفهمت منكراً ما يجري ويتداول في حضورهم من الظلم بعد رسول الله ﷺ، في قولها: «ما هذه الغميمة في حقِّي؟! والسنة [والغفلة] عن ظلامي، أما كان رسول الله ﷺ أبي يقول: المرء يحفظ في ولده، وعجلان ذا إهالة، ولكم طاقة بما أحاول، وقوة على ما أطلب وأزاول، أقولون: مات محمد ﷺ، فخطب جليل، استوسع وهنه... فتلك والله النازلة الكبرى، والمُصيبة العظمى، لا مثلها نازلة... ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾»^(٢).

وتستأنف مخاطبتهم بقولها: «إيها بني قيلة، أأبتر تراث أبي؟ وأنتم بمرأى مني ومسمع، وممتدى ومجمع!! تلبسكم الدعوة وتشملكم الخبرة، وأنتم ذوو العدد والعدة والأداة والقوة، وعندكم السلاح والجنة، توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتُخبت، والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت... حتى إذا دارت بنا رحي الإسلام ودرّ حلب الأيام، وخضعت نعمة الشرك، وسكنت فورة الإفك، وخمدت نيران الكفر، وهدأت دعوة الهرج واستوسق نظام الدين، فأني حرتم بعد البيان، وأسرتهم بعد الإعلان، ونكصتم بعد الإقدام، وأشركتم بعد الإيمان، بؤساً لقوم نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول، وهم بدؤوكم أول مرة، أتخشونهم؟ فالله أحق أن تخشوه

(١) ينظر: لسان العرب م/نقب، ٦/٤٥١٥، وتاج العروس: ٤/٢٩٧.

(٢) آل عمران: ١٤٤.

إن كنتم مؤمنين، ألا قد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض وأبعدتم من هو أحقّ بالبسط والقبض، وركنتم إلى الدعة ونجوتهم من الضيق بالسعة فمجبجتم ما وعيتهم ودسعتهم الذي تسوَّغتم، فإن تكفروا وأنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغنيّ حميد، ألا قد قلت ما قلت على معرفة منّي بالخذلة التي خامرتكم، والغدرة التي استشعرتها قلوبكم... فدو نكموها فاحتقبوها دبرة الظَّهر، نقبة الخفّ، باقية العار موسومة بغضب الله، وشنار الأبد، موصولة بنار الله الموقدة، التي تطلّع على الأفئدة، فبعين الله ما تفعلون، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون، وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فاعملوا إنّا عاملون، وانتظروا إنّا منتظرون»^(١).

رابعاً: عود الضمائر غير المباشرة على المخاطبين، ومنها:

١. ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾، واضح أنها تريد كلما أوقدتم.
 ٢. «فرأى الأمم فرقاً في أديانها وعابدة لأوثانها عكفاً على نيرانها، منكرة لله مع عرفانها»، أي رآكم.
 ٣. «فأنار الله بأبي ﷺ ظلمها، وجلّا عن الأبصار عمهها، وعن القلوب بهمها» الظلم والعمى الذي كنتم عليه.
- وقد كان تكرار ما يدلّ على المخاطبين أكثر من ستين موضعاً مباشراً وغير مباشر.
- فكانت النتيجة أنّ (الأنا) أو ذات الزهراء ﷺ في الخطبة مجموع في واحد: هي وأبوها وابن عمها والقرآن الكريم، في حين كان (الآخر) في الكفة المقابلة.
- وكانت البنى الحجاجية في خطاب المخاطبين قد تضمنت ما يُشترط من تحقيق الترابط، من مثل احتفاظ السياق بالتراتب الزمني، بدءاً من البعثة وما حققته (أنتم)،

ثمّ ما كان منهم وقد أدّوه (أيها الناس)، ثمّ ما اتَّخذ من بخس حقّ السيِّدة واحتجاجها بالقرآن، (يا بن أبي قحافة)، ثمّ تذكير الأنصار بما كان لهم من مناقب ومواقف (يا معاشر النقيّة)، ثمّ تعنيف هؤلاء الأنصار على تهاونهم (أيها بني قيلة)، ثمّ توبيخ المجموع (معاشر الناس)، تواتر الموضوعات في انتظام ترابط الوقائع، مستندة إلى قاعدة مشتركة تنفعل فيها تلك العلاقات لتشكل بؤرة الحجاج، وموضوعه الرئيس^(١).

فكانت (الأنا) قويّة بأبيها وبعلمها والقرآن الكريم، وقد قوّمت (الأنا) أداء (الآخر)، وأظهرت ما له وما عليه، فكان هذا (الآخر) بحسب هذا التقويم قبل البعثة ضالاًّ ذليلاً خائفاً عابداً للأصنام، في قولها: «تعبدون الأصنام، وتستقسمون بالأزلام، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقُبسة العجلان، وموطئ الأقدام... أدلّة خاشعين، تخافون أن يتخطفكم الناس، من حولكم»^(٢)، ثمّ صار هذا (الآخر) «بفضل الدعوة المباركة» وادعاً آمناً خاملاً ساكناً... أمّا بعد رحيله ﷺ مباشرة فقد «نطق كاظم الغاوين، ونبغ خامل الآفلين، وهدر فنيق المبطلين»^(٣)، مستجيباً لداعي الشيطان، واضعاً يده على ما ليس له، زاعماً أن لا إرث لآل البيت، نابذاً الحكم بكتاب الله.

(١) بنية الحجاج، بحث د. فاطمة: ٢٥٠.

(٢) دلائل الإمامة: ١١٤.

(٣) بلاغات النساء: ١٨.

الفصل الثالث

معايير النص السبعة

تمهيد

كان من وكده هذه الدراسة وغايتها إدراك أغراض الخطبة، والوظيفة التداولية للغة نصّها، والوعي بما يحيط بها، استنادًا إلى فهم أمثل للتراث الذي تمثله، والتداولية نفسها عند من يهتم بها: توجه معرفي يُعنى بخصائص استعمال اللغة ودوافع المتكلمين، وردود أفعال المستقبلين، وقيل: إنّ وظيفة اللسانيات النصّية وصف المكونات التخاطبية في تعالق بعضها ببعض داخل النصّ، وما يؤثر في النصّ من خارجه، وفهم كل جملة من جملة استنادًا إلى فهم مجموع الجمل الأخرى، وتبيّن جودة القول استنادًا إلى النظام النحوي الذي يعتني بدراسة الخصائص الشكلية والأبنية اللغوية، وكذلك الدلالة التي تختص بدراسة العلاقات بين الماهيات اللغوية والعالم الخارجي، في حين لا تتوانى التداولية عن الغوص في تشعب المعاني وتشابكها^(١)؛ لأنّ قصدها هو فهم الأغراض التبليغية، وتحليل الاستدلال المنطقي واللساني في الكلام، وتمييز أفضل أنواع الاتصال من غيرها.

فالنصّ كلام في موقف تواصليّ يكشف عن جوانب تداولية، تتعلق بمنتج النصّ ومتلقّيه، والعلاقات التفاعلية بينهما، وتؤثر فيه مجمل الظروف والأجواء المعرفيّة والوجدانيّة، وكذلك قصد منتج النصّ والغاية التي يريدها منه، وتصوّرات المتلقين وتوقعاتهم، ويشاركهم القارئ في كلّ ذلك فيما بعد.^(٢)

(١) الخطاب الأدبي: ٧٠-٧٢.

(٢) الخطاب الأدبي: ٥٦-٥٨.

والنصّ قبل تدوينه خطاب بين طرفين، وبعد التدوين يدخل الطرف التفاعليّ الثالث، إذ يمرّ بمرحلتين يتحوّل فيهما من عمل ملفوظ إلى عمل مكتوب، فهو خطاب ما دام ملفوظاً، ونصّ متى سُود ودوّن، فيكون مغلقاً بعد أن كان مفتوحاً، ثم يدخل القارئ في الاعتبار^(١)، ليعيد فتحه والتفاعل معه.

والنصّ يحمل الهمّ الكبير لمنتجه، ومن بعده لقارئه الذي سيتفاعل لاحقاً مع مكوناته الكلّية والجزئية ولاسيما بتعدّد قراءاته، فربما صعب فهمه إلّا بعد جهد، وقد يكون به حاجة إلى تشرّيح، وتفكيك، وحوار لفهم العلاقات التي تنظمه، وكذلك إدراك الصلة الوثيقة بين مكوناته، للوقوف على المغزى الكلّي له، بعد استكشاف ما يربط بين أجزاء موضوعه، باستنطاق طريقة بناء تركيبه، وما يتضمّنه من أفعال وأسماء، وتبيّن ما تؤدّيه ضمائرّه، انطلاقاً من ذهن مؤلفه، حين أنجزه، ومن خبرة القارئ في تفحص هذا البناء، ومن تراكم ما تحصل له، من وضع يده على عتبات ما يحيط به، ولاسيما أجواء زمانه، وأثر مكانه، أي الحوار العميق بين النصّ ومتلقيه وما يُحيط بهما.^(٢)

أمّا المستوى التداوليّ فيُعنى بالكشف عن الجوانب التي تتعلق بمنهج منتج النصّ، ومتلقيه، والعلاقات بينهما، وإشكال التواصل والتفاعل؛ إذ إنّ النصّ كلام في موقف، تؤثر أبنيته وتراكيبه في الاتصال معرفياً ووجدانياً، فيكشف بالاعتماد على القواعد والإمكانات ربط الأداء اللغويّ بأجواء الاتصال، وأثر المكونات السياقية خارج النصّ وداخله، في قصد الباحث، والثمرة المرجوة منه، وتصورات المتلقين وتوقعاتهم، وإمكان تعدّد معاني النصّ الواحد، بمشاركة القارئ للمؤلف.^(٣)

(١) لسانيات النص: ١٦-١٨.

(٢) الخطاب الأدبي: ٦١-٦٣.

(٣) الخطاب الأدبي: ٥٩.

فلأبدّ من مراجعة أغراض الخطاب وإدراك مراميّه، وتفحص وظيفته التداوليّة، استنادًا إلى دراسة أفعاله اللغوية المعبرة عنه، ووصف مكوناته التخاطبية، والعلاقات التي تنتظمها، وكيفية تحقيق أغراضها التبليغية، ومن ثمّ تحليل الكيفية التي بحسبها جرى الاستدلال المنطقي واللساني بين المتكلمين، وإظهار كفاءة النماذج الكلامية القائمة على الاستدلال أو الترميز، ودراسة انسجام صلة المعنى بالظروف^(١). لكنّ الانسجام يظهر في المستوى العميق للنص الذي يوضح الترابط بين التراكيب... وذلك عند البحث في العلاقات القائمة بين التصورات والتطابقات والمقارنات والتشابهات في المجال تصوّري... وفيما تحيل إليه الوحدات المادّية^(٢).

أمّا الفائدة العملية والمعيار لمثل هذا التوجه، فاللسانيات التداولية: تخصّص حديث يدرس العلاقة بين مستعملي الأدلّة اللغوية (المرسل والمرسل إليه)، ويدرس أيضًا علاقات التأثير والتأثير بين الطرفين، وما يتحقق من التحوار المتصل بينهما، استنادًا إلى دراسة استعمال اللغة في الخطاب، وتحليل انسجام الكلام، ووظائف الأقوال اللغوية وخصائصها في التواصل الكلامي^(٣).

لكنّ (الانسجام يظهر في المستوى العميق للنص الذي يوضح الترابط بين التراكيب... وذلك عند البحث في العلاقات القائمة بين التصورات والتطابقات والمقارنات والتشابهات في المجال تصوّري... وفيما تحيل إليه الوحدات المادّية)^(٤)؛ من حيث تمييز أنواع الجمل، وأدوات الربط، والعطف، والتكرار، والفصل والوصل، والحذف والضمائر، والإشارة والموصولات، والأفعال وأزمنتها، وغيرها.

(١) الخطاب الأدبي: ٧٣.

(٢) الخطاب الأدبي: ٥٤-٥٥.

(٣) الخطاب الأدبي: ٦٩-٧٠.

(٤) الخطاب الأدبي: ٥٤-٥٥.

وتتضافر معايير النصّ في الربط بالأسس التي يعتمد عليها، وهي: السبك والحبك والقصد والقبول والإعلامية ورعاية الموقف والتناص.^(١)

ليتبين من هذه المعايير العوامل المؤثرة في تمييزها، من النصّ نفسه، أو من استعماله، أو من السياق المحيط به، وهي:

فما يتصل بالنص صلة وثيقة، هما: السبك والحبك، ويتميّز السبك بأنه تماسك نصّي شكليّ، والحبك دلاليّ.

وما يتصل بمستعملي النص، وهما: القصد والقبول.

وما يتصل بالسياق المحيط بالنص، وهي:

الإعلام والمقامية والتناص.^(٢)

أولاً السبك: Cohesion

السبك: أو الترابط الرصفي الأفقي، أو التضام والتتابع الجمليّ، وفي السبك يُوصف استمرار العلاقات النحوية بين الجمل المتعاقبة في نص ما، أي دراسة تماسك التعالق بين الأجزاء السطحية الظاهرة المؤلفة للنص، من العناصر اللسانية، بما يشتمل عليه الجانب اللغويّ النحوي من علاقات وروابط بين الأجزاء في الجملة الواحدة والجمل المتتابعة المعبرة عن واقعة التواصل المحددة، فيفهم من تتابع هذه الجمل ترابط النصّ، وهو ما يشترك به نحو النص ونحو الجملة، (وإذا كانت الجملة نواة النصّ، فإنّ نحو النصّ لا يرفض نحو الجملة رفضاً مطلقاً، إنّما يقف به عند هذا الحدّ تاركاً

(١) النص والخطاب والإجراء: ١٠٣، ونحو النص بين الأصالة والتراث: ٨٢.

(٢) نحو النص بين الأصالة والتراث: ٨٢-٨٣.

له العلاقات داخل الجملة الواحدة، ومتجاوزاً ذلك إلى مسرح النصّ على اتساعه.^(١) والسبك أو التماسك هو التعليق عند الجرجاني، في قوله: «إنّ العاقل يرتب في نفسه ما يريد أن يتكلم به...»^(٢)، «وإنّ اللفظ تبع للمعنى في النظم، وإنّ الكلم تترتب في النطق، بسبب ترتب معانيها في النفس...»^(٣)، «وإنّ الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة، لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأنّ يُضمَّ بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينها من فوائد... وأنك ترتب المعاني في نفسك، ثمّ تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك»^(٤).

فوسائل السبك والتضام تشتمل على التراكيب النحوية والجميل، وأمور منها التكرار، كتكرار الكنائيات من الضمائر والإشارة والموصولات، والأدوات، والإحالات، وأدوات الربط التعليلي، والاستنتاج، إذ المفردات في التراكيب النحوية يؤثر في نظمها أدوات الربط، والضمائر، والتكرار، والتضاد، والمرادفات، والإحالات...، وهذه هي وسائل تماسك النصّ وانسجامة واتساقه، في تضامّ بعضها إلى بعض، في المستوى النحوي، والمستوى الدلالي.^(٥)

والتماسك أهمّ المعايير التي يقوم عليها التحليل النصي^(٦)، وقد حصر بوكرانند وسائل السبك في ثمان وسائل^(٧)، منها:

(١) نحو النص بين الأصالة والحدثة: ١١٥.

(٢) دلائل الإعجاز: ٣١٠.

(٣) المصدر السابق: ٤٥.

(٤) المصدر السابق: ٣٤٩-٣٩٥.

(٥) الخطاب الأدبي: ٣٦، ٤٣، ٥٢.

(٦) نحو النص بين الأصالة والحدثة: ٨٥.

(٧) النص والخطاب والإجراء: ٣٠١-٣٠٢.

١. إعادة اللفظ بتكرار العبارات لفظياً.

٢. التعريف بالعهد أو الذكر وغيرهما مما يتصل بعالم النصّ وطبيعته.

٣. اتحاد المرجع مع تعدد اللفظ، الكنايات، إذ تشير إلى شيء ينتمي إلى عالم النص نفسه.^(١)

٤. الإضمار.

٥. الحذف، حذف المفرد أو التركيب.

٦. الربط، مطلق الجمع، والتخيير، والاستدراك والتبعية.

فالمستوى النحوي: (هو الذي يحدّد التماسك عند فان دايك، وذلك عند البحث في العلاقات القائمة بين التصورات والتطابقات والمقاربات والمقارنات والتشابهات في المجال التصوري... وفيما تحيل إليه الوحدات المادية).^(٢)

ولا بُدّ أن نبدأ من عرض الإمكانيات اللغوية، أو ما يسمونه بـ (الاستراتيجية) strategy، التي يقال إنّ على المنشئ أن يلحظها، والأساليب التي سيتبعها في التخطيط العقلي والمنطقي والموضوعي لما يريد عرضه من نصّ، لتغيير موقف المخاطبين وإقناعهم، والتفكير في كلّ مفاصل الخطاب ودقائقه وصوره وأساليبه، وبناء ما يحقق الانسجام بين مكونات الخطاب الأساسية والفرعية، من مثل التفكير في منع وقوع التنافر أو التناقض بين أجزاء النصّ، أو من مثل مراعاة الجوانب النفسية أو الاجتماعية، وكذلك اختيار المفردات والجمل والمعاني والصور والبراهين المناسبة، على وفق نسق عقلي وترتيب تفاعليّ للعناصر اللغوية يستجيب لما يلائم المخاطبين؛ لأنّ الركافة والهفوات مثلاً تهدم الحجاج، وتضيّع كلّ محاولة للإقناع أو تغيير الرأي، ولا ننسى الاستناد إلى الوضوح

(١) مقدمة النص والخطاب والإجراء: ٣٢.

(٢) الخطاب الأدبي: ٥٤.

والرصانة في عرض الحقائق والأفكار، وتجنب اللبس، وهذه المقدمات ضرورة من الضرورات التي تسبق دراسة التماسك والربط، وأداؤهما وقبل دراسة السياق وأثره، وكذلك دراسة مرتكزات تأليف النص، وعمليات بنائه التخطيطية الذهنية العقلية والفعليّة المتحققة.^(١)

وعادة ما يكون كلّ من المتكلم والمتلقّي على خط واحد في التواصل من أجل العلم بأنواع الأهداف والمقاصد المختلفة التي تصنّف في صياغات مختلفة يمكن بواسطتها التوصل إلى هدف القول وغاياته، و(استراتيجية) بناء النص لكشف المخطط الذهني الرئيس الذي يحقق الهدف، وبيان مدى ملاءمة أساليب استراتيجية الخطاب لمستقبل النصّ و(استراتيجية) الخطاب.^(٢)

أمّا في خطبتنا فيتضح مرجع التواصل بين المتكلمة والمتلقّين، مرتبطاً بآثار الحدث الأكبر رحيل المبعوث رحمة للعالمين، ونُعبر عنه بـ(استراتيجية) التذكير بفقده ﷺ، فما الالته التي أنّتها السيدة، التي سبقت الخطبة والتفاعل الذي أحدثته، بالإجهاش بالبكاء لفقده ﷺ، إلّا المصداق لهذا التواصل، واستعانت الخطبة بضمير التكلم، المتماهي في الذات النبويّة المقدّسة، الممتدّة إلى فرع الدوحة ووالد الحسينين، فالأنا أنا الزهراء، المتحدة في رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين ﷺ، في مقابل الآخر، ومن تبعه، وهذه (الأنا) هي بؤرة النص ومركزه، تتأكد هذه البؤرة النحوية من:

١. ثنائية الأنا والآخر:

وما يكملهما من الأدوات، فكانت غاية الخطبة التنبيه على التقابل بينهما، إذ تهاون الآخر في حقوق آل البيت (الأنا) في هذه الخطبة، وغفلة المخاطبين (أنتم) وتهاونهم عمّا

(١) نحو النص بين الأصالة والحداثة: ١٧٤.

(٢) نحو النص بين الأصالة والحداثة: ١٧٦.

دُبِّر، وقد جلبت (الأنا) التركيز والتعاطف والالتفات إلى الحجاج، وإظهار الأحقية.

فـ (الأنا) الوعي والمعرفة التي تدعو الآخر إلى إعادة التفكير فيما تصرف، و (الأنا) في الخطبة مطلق التوحيد بالله وبرسوله، (الأنا) الشاهدة على الآخرين في زمانهم، والعبرة في الزمان الذي سيأتي، وكان (المكان السياق الثقافي المعرفي الذي دار فيه النص المشترك، وكذلك الظروف المتعلقة بالمقام، في حقبة محددة واحدة، يشمل ذلك زمان المحادثة ومكانها والعلاقة بين المتحادثين، وضمن إطار تفاهم أيديولوجي واحد، وهو عصب أي رسالة لغوية ما عدا النصوص العلمية).^(١)

ونعرض فيما يأتي أطراف ما عرضناه في الفصل السابق ويناسب هذا المقام، من مواضع عود ضمير (الأنا) على السيدة في الخطبة المباركة، ومنها مفتتح الخطبة: الشهادة التي يشهدون بها لصاحب الدعوة، في قولها: «أشهد أن أبي عبده ورسوله»، وقد «أنار الله ﷻ بأبي ﷺ ظلمها»، فما بالكم بعد أن «قبض الله نبيه ﷺ قبض رافية واختيار، رغبة بأبي عن هذه الدار»، قد تغيرتم، وتعرفون أن «أبي نبي الرحمة، وأمينه على وحيه، وصفية من الخلاق، ورضية»، وتعرفون أن «إطاعتنا نظاماً للملة، وإمامتنا أماناً للفرقة»، فيا «أيها الناس اعلموا أنني فاطمة، وأبي محمد، أقول عوداً وبدءاً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً»، «فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نسائكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم»، وقد «أنقذكم الله تعالى بأبي محمد ﷺ، بعد اللتي والتي».

وتتحوّل نحو المخاطبين، جاعلة الواحد في المجموع والمجموع في واحد، مستفهمة، ومتعجبة، ومستغربة، ومستدركة لما لا يتوقع من مثلهم، في خطاب شديد

(١) النص والسلطة، نصر حامد أبو زيد، ط ٤ بيروت، ٢٠٠٠، ص ٩٨-٩٩، عن إشكالات النص:

يناسب ما كانوا عليه: لكنكم صرتم «تتربصون بنا الدوائر!»، ونحن «نصبرُ منكم على مثلِ حَزِّ المُدى»، حتى «أنتم الآن تزعمون أن لا إرثَ لنا»، و«زعمتم أن لا حظوةَ لي، ولا إرثَ من أبي... أفخصَّكم اللهُ بآيةٍ أخرجَ أبي منها؟»، و«قد تجلَّى لكم كالشمسِ الضاحيةِ أنِّي ابتئتهُ»، «أو لستُ أنا وأبي من أهلِ ملةِ واحدة؟! أم أنتم أعلمُ بخصوصِ القرآنِ وعمومه من أبي وابنِ عمِّي»، فيا «أيُّها المسلمون: أأغلبُ على إرثي؟» «أفي كتابِ الله أن ترثَ أباك ولا أرثُ أبي؟! لقد جئتُ شيئاً فريباً؟».

«ما هذه الغمِيزَةُ في حقي؟ والسَّنةُ عن ظلامي؟ أما كان محمدٌ ﷺ أبي يقول: المرءُ يحفظُ في ولده».

«ألكم طاقةٌ بما أحاول؟!، وقوَّةٌ على ما أطلبُ وأزاول»، «أأهضمُ ثراثَ أبي؟! وأنتم ذوو العددِ والعُدَّةِ والأداءِ والقوَّةِ...»، «وأنتم موصوفون بالكفاحِ، ومعروفون بالخيرِ والصلاحِ، والنُّخبةِ التي انتُخِبَتْ، والخيرةُ التي اختيرتَ لنا أهلُ البيت... قاتلتهم... وناطحتهم... وكافحتهم... لانبرحُ أو تبرحون، نأمرُكم فتأتمرون»، «حتَّى إذا دارت بنا رحى الإسلامِ، ودرَّ حلبُ الأيَّامِ، وخضعت نعةُ الشركِ، وسكنت فورةُ الإفكِ، وخمَدَت نيرانُ الكُفرِ وهدأت دعوةُ الهرجِ، واستوسق نظامُ الدينِ، فأنَّى حرتم بعد هذا البيان؟ وأسررتم بعد هذا الإعلان؟ ونكصتم بعد الإقدام؟ وأشركتم بعد الإيمان؟».

«ألا قد أرى أن قد أخلدتم إلى الحَفْضِ، وأبعدتم من هو أحقُّ بالبسطِ والقبضِ»، «ألا قد قلت ما قلت على معرفةٍ مِنِّي بالخَدَلِ التي خامرتكم، والغَدرةِ التي استشعرتها قلوبُكم، ولكنها فيضةُ النفسِ، ونفثةُ الغيظِ، وخورُ القنا، وبثَّةُ الصدرِ، وتقدِّمةُ الحجةِ»، «أنا ابنةُ نذيرٍ لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ، فاعملوا إنَّا عاملون، وانتظروا إنَّا منتظرون».

فقد حَقَّق ضمير التكلم (الأنا) والتخاطب (أنتم) الترابط والتماسك والانسجام بين أجزاء النص، وأوصل بين الدلالات، وعَبَّر بكليهما عن التواصل والحضور الفاعل، وتوازن ما يعرض.

لكن هل يُعقل أن يُؤَوَّل الخطاب طلبًا لحطام الدنيا الحقيرة؟

وهل فيما تقدم دليلٌ سوى دليلِ الثبات؟

ثباتِ الذاتِ المتماهية بالمبعوث رحمة للعالمين!

أولم يكن ذلك الثبات على هداية القرآن الكريم؟!

فهل من المبالغة أن تقصد هذا التكرار؟!

وهل كان ذلك لغير إظهار الجحود والنكران؟

٢. التكرار: كتنكار:

أ. كلمة (الإخلاص):

جاءت في افتتاح الخطبة: «أشهد أن لا إله إلا الله، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمن القلوب موصولها، وأبان في الفكر معقولها»، والإخلاص: هو تأويل كلمة التوحيد، وكلمة التوحيد الإخلاص، والإخلاص إتيان العمل لوجه الله تعالى، وإنَّ الدين هو التوحيد الذي يقترن بالإخلاص.

وجاءت في قبول المخاطبين كلمة الإخلاص بعد جهاد والدها عليه السلام، في قولها: «بلغ الرسالة... ضاربًا لثبجهم، آخذًا بأكظامهم، داعيًا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، يجذُّ الأصنام، وينكت الهام، حتى انهزم الجمع وولوا الدبر، وحتى تفرَّى الليل عن صبحه وأسفر الحق عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق

الشياطين، وفهتَم بكلمة الإخلاص^(١)، فكلمة (الإخلاص) شهادة (أن لا إله إلا الله)، وربما أرادت بـ (فهتَم) القول باللسان أي رضختم وكان قولكم مجرد قول لسانِي لا قلبي؛ لأنَّ الإخلاص لا يكون إلا بإتيان العمل الجوانحي والجوارحي (وجوارح الإنسان أعضاؤه كيدَيْه ورجليه... لأنهن [أي الجوارح] تُخرجن الخير والشر، أي يكسبنه)^(٢)، فلم تسلموا لله تسليم القلب والجسد، ولم يرتسخ عندكم العلم والعمل الخالص لوجه الله، قال تعالى على لسان إبليس في تمييز المخلصين من غيرهم: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا عُوبَتَهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾^(٣).

وتكرّرت كلمة الإخلاص في قولها: «الصيام تثبيتاً للإخلاص».

وتكرّرت أيضاً في قولها: «والتبرّي من الشرك إخلاصاً بالبربوية».

ب. تكرار (فدونكها)، الكاف للمخاطب، والهاء للغائبة، في قولها: «فدونكها مرحولة مخطومة مزومة تلقاك يوم حشرِك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة»، كأنها «فيما أزعِم» شَبَّهَتْ ما اتُّخِذَ ودُبِّرَ في الدنيا بالناقَة المحملة بوثائق ما جرى، وهذه الناقَة ستلقاه هناك في آخرته، (رُويَ عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «تجدون الناس كإبلٍ مئةٍ ليس فيها راحلة»، قال ابن قتيبة: الراحلة الناقَة يختارها الرجل لمركبه ورحله على النجابة وتما الخلق وحسن المنظر)^(٤)، وأوضح صاحب التهذيب «أنَّ الله تبارك وتعالى ذمَّ الدنيا وركون الخلق إليها وحذّر عباده سوء مغبّتها، وزهّدَهم في اقتنائها وزخرفها، وضرب لهم فيها الأمثال ليعوها ويعتبروا بها، فقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾^(٥)، وكان النبي ﷺ يحذّر أصحابه بها حذّرهم

(١) كشف الغمة: ١١١-١١٢.

(٢) لسان العرب م / جنح وجرح.

(٣) سورة ص: ٨١-٨٢.

(٤) تهذيب اللغة م / رحل.

(٥) الحديد: ٢٠.

الله من ذميم عواقبها وبنهاهم عن التَّبَرُّ فيها ويزهّدهم فيها زهّدهم الله... فرَغِبَ أكثر أصحابه ﷺ بعده فيها، وتشاحّوا عليها وتنافسوا في اقتنائها، حتى كان الزهد في النادر القليل منهم، فقال النبي ﷺ: «تجدون الناس بعدي كإبلٍ مئة ليس فيها راحلة»... أراد أنّ الكامل في الخير والزاهد في الدنيا مع رغبته في الآخرة والعمل لها قليل، كما أنّ الراحلة النجيبة نادرٌ في الإبل^(١).

أمّا مرحولة: فشديدة معدّة للمضيّ والسفر، ومخطومة موسومة بسمة، من خطمت البعير إذا كويته خطأً من الأنف إلى أحد خديّه، وتسمّى تلك السمة الخطام، قال تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾^(٢)، و(الوسم على الأنف أريد به نهاية إذلاله بذلة ظاهرة يعرفه بها كلّ من رآه؛ لأنّ الأنف ممّا يظهر فيه العزّة والذلّة كما يُقال: شَمَخَ بأنفه... وأرغمت أنفه وجدع أنفه)^(٣)، ومزومة: مشدودة مقادة، وفي «الحديث: لا زمام ولا خزام في الإسلام، أراد ما كان عبّاد بني إسرائيل يفعلونه من زَمّ الأنوف، وهو أن يخرق الأنف ويوضع فيه زمام»^(٤)، والناقة الموصوف بها نشيطة، نجبية، مجهّزة، تلقى المعنيّ في آخرته.

(فدونكموها) للمخاطبين، في قولها: «فدونكموها فاحتقّبوها، مدبرة الظهر، ناقبة الخفّ، باقية العار، موسومة بشنار الأبد، موصولة بـ ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾^(٥) الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفئِدَةِ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ»^(٥).

أمّا تهديد المخاطبين هنا فيجمع بين الاثنين، جزاء الدنيا وجزاء الآخرة، بدلالة:

(١) تهذيب اللغة م / رحل.

(٢) القلم: ١٦.

(٣) الميزان: ١٩ / ٣٢٩.

(٤) لسان العرب م / زمم.

(٥) الهمزة: ٦، ٧.

(فاحتقبوها) احتقبه أردفه، والاحتقاب الحمل من خلف، ويقال احتقبَ خيرًا أو شرًّا،^(١) و(ناقبة الحفّ)، النقب أوّل الجرب أو أوّل ما يبدو منه، فناقبة الحفّ مجرّبته، ونَقَبَ حُفَّ البعير: إذا حَفِيَ حتّى ينخرق فرسَنُهُ، «وفي حديث عليّ ؑ: وَلَيْسْتَ أَنْ بِالنَّقَبِ وَالظَّالِعِ، أَي يُرْفَقُ بِهِمَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْجَرَبِ»^(٢)، فهذه الناقبة مجّهدة، نَقَبَةُ الحُفِّ، حافيته مرقعته منخرقته^(٣)، ذلك جزاء ما تخلّفوا عنه، وارتضوا به، وبهذا يكون أمرها ممتدًّا من زمان الدنيا إلى زمان الآخرة، مثلما سيكون في السنين التي يحتقبونها، والحقبة والأحقاب والحقب: السنون والدهور^(٤)، لكنّ هذه السنين مدبرة الظهر شديدة الوطأة، باقية العار، موسومة بشنار الأبد، والشنار أقبح العيب الذي فيه عار، وقلّما يفردون الشنار من العار.^(٥)

فهذه الناقبة تختلف عن سابقتها، وهما فيما يبدو ناقتان مختلفتان في المواصفات، أمّا هذه فمثقلة مدبرة مريضة ذات جرب، ممتدة متصلة العار في الدنيا والآخرة، وتلك الناقبة ناقة المخاطب المعنيّ نشطة منقطعة غير مستمرة ستظهر فقط في يوم الحشر.

ت. ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ وَاَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿٦﴾، وقبلها: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾.

ث. تكرار لفظ (الفتنة): «بِدَارًا زَعَمْتُمْ خَوْفَ الْفِتْنَةِ»، ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾^(٧)، وسياق الآية المستشهد بها في بيان حال المنافقين ومن

(١) تاج العروس م / حقب.

(٢) لسان العرب م / نقب.

(٣) تاج العروس ٣ / نقب.

(٤) تاج العروس: م / حقب.

(٥) تاج العروس شمر ١٢ / ٢٤٤-٢٤٥.

(٦) هود: ١٢١-١٢٢.

(٧) التوبة: ٤٩.

أوصافهم وعلائمهم، وقبلها ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾^(١)، ومبادرة المخاطبين اللجوء إلى السقيفة، مدّعين الخوف من الفتنة، فكان أن سقطوا فيها، بمسارعتهم وتديبرهم.

٣. الإحالة:

إذ يُلاحظ إلى جانب ما تقدم تأثر السبك أو التماسك بالحضور الفاعل للمتحدثة، وصفاتها، وصدقيتها، وكفاءتها، وجودة أدائها، والظروف المقاميّة المحيطة بها، وهذا ما يسمّى بـ (السياق الخارجي)، أي الظروف التي ينسب إليها الربط والتحليل والتأويل، كالنعميم والتخصيص، والإجمال والتفصيل، والتفسير والبيان، والسببية والاستدراك، والتوكيد والتقرير، والتعجب والتعليل... والضمائر، والظروف، والأسماء، والأفعال، والصفات، وكل وسائل التعبير النحوي، فالتماسك الدلالي أو الانسجام بالربط بين مضامين جمل النص، وارتباط بعضها ببعض.

ومنها الإحالة إلى قريب أو بعيد، داخلية أو خارجية، قبلية أو بعدية، ولا نبالغ إن قلنا إنّ مجمل نصّ الخطبة يحيل إحالة قبلية، إحالة على الرسالة التي أنجزها والدها المبعوث رحمة، والتي أنقذت المخاطبين وأحدثت التغيير الشامل لمجتمعهم، ومنها النعم التي لا تُعدّ ولا تُحصى، ومنها بلاء ابن عمّها في إحداث التغيير، وأخوّته لرسول الله ﷺ، في مقابل ضعف أدائهم وخمولهم.

ومن الإحالة إلى قريب: إحالتها على انكشاف الأمور بعد رحيله ﷺ، وظهور المخفي، والتصريح بالعداوة، من الساكنتين خاملي الذكر، الذين كانوا يضمرون غير ما يظهرون، في قولها: «حتى إذا اختار الله لنبيّه دار أنبيائه ظهرت خلّة النفاق وسُملّ جلباب الدين ونطق كاظم الغاوين، ونبغ خامل الغافلين، وهدر فنيق المبطلين، فخطر

في عرصاتكم...»^(١)، وهذا من الإحالة إلى القريب المتّصل بالقبليّ.

ومن الإحالات البعدية المستقبلية: الإحالة على الثواب الأخروية، والتهديد بالعقاب على المعصية على ما لاقى أهل البيت، ومنها ظلامتها التي مثلتها بناقة عليها رحلها وخطامها.^(٢)

ومنها أيضًا الحضور الفاعل والصفات العالية والصدقية المعهودة لما نحن فيه، ما جاء في الأخبار الصحيحة أنه ﷺ كان يجوع ويشدّ حجرًا على بطنه، وأنه ما شبع آل محمد من لحم قط، وأنّ فاطمة وبعلاها وبنوها كانوا يأكلون خبز الشعير، وأنهم آثروا سائلًا بأربعة أقراص منه كانوا أعدوها لفطورهم، وباتوا جياعًا.^(٣)

فالذات الفاطمية مشبعة بمثالية الرسالة المحمدية، وقد أرادها ﷺ أن تكون مثلاً أعلى في الزهد والصبر والتقشف، ذلك لتتبوأ بجدارة مقام سيدة النساء.

فهل كانت الزهراء تخرج لشيء من حطام الدنيا الحقيرة؟!

وإلا فكيف نجمع بين الزهد والمطالبة بما ليس لها؟!

ومن الإحالة الخارجية والظروف المقامية المحيطة بالنص أو السابقة له، ما يروى «عن زيد بن أرقم، قال: كنا مع رسول الله ﷺ وهو في الحجرة يُوحى إليه ونحن ننتظره حتى اشتد الحرّ، فجاء عليّ بن أبي طالب ومعه فاطمة وحسن وحسين عليهم السلام، فقعّدوا في ظل حائط ينتظرونه، فلما خرج رسول الله ﷺ، رأهم فأتاهم ووقفنا نحن مكاننا، ثم جاء إلينا وهو يظلمهم بثوبه، ممسكًا بطرف الثوب، وعليّ ممسكًا بطرفه الآخر، وهو يقول: اللهم أني أحبهم، فأحبهم، اللهم إني سلم لمن سالمهم، وحرب لمن حاربهم،

(١) بلاغات النساء: ١٧.

(٢) جامع الأخبار: ٥٦/٧.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٥٤/٩.

قال: فقال ذلك ثلاث مرات^(١).

و«قال النبي ﷺ: أنت أول من آمن بي، وأنت أول من صدقني... وقال لفاطمة: زوجتك أقدمهم سلماً أو أقدمهم إسلاماً... وأكثرهم علماً، وأعظمهم حلماً»^(٢).

وربما كانت المقدمة لهذا الجحود قد سبقت ما جرى في السقيفة، بل «لما حضرت رسول الله ﷺ الوفاة، وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال رسول الله ﷺ: اثنوني بدواة وصحف، أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعدي، فقال عمر كلمة معناها أن الوجود قد غلب على رسول الله ﷺ، ثم قال عندنا القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف من في البيت واختصموا، فمن قائل يقول: القول ما قال رسول الله ﷺ، ومن قائل يقول: القول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو واللغو والاختلاف، غضب رسول الله، فقال: قوموا، إنه لا ينبغي لربي أن يختلف عنده... فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله ﷺ... قلت هذا الحديث قد خرجه الشيخان محمد بن اسماعيل البخاري، ومسلم... واتفق المحدثون كافة على روايته»^(٣).

(وانخذل عليّ وفاطمة وقُهرًا، وأُخذت فذك، وخرجت فاطمة تجادل في ذلك مرارًا، فلم تظفر بشيء، وفي ذلك تبلغها النساء والداخلات والخارجات عن عائشة كلام يسوؤها...)»^(٤).

(١) شرح نهج البلاغة ٣/ ١٤٣-١٤٤.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٣/ ١٥٧-١٦١.

(٣) شرح نهج البلاغة ٥/ ٢٠٨، وينظر مسند أحمد ١/ ٣٢٥، وصحيح البخاري: ١٣٧-١٣٨،

٧/ ٩-٨/ ١٦١، صحيح مسلم: ٧٦/٥.

(٤) شرح نهج البلاغة: ٩/ ١٣٤.

ثانيًا: الحبك Coherence

الْحَبْكُ لُغَةً: الشَّدُّ والإِحْكَامُ قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾^(١)، يقال نَسَجَ الثوبَ فأَجَادَ حبكه^(٢)، واصطلاحًا: التماسك الدلالي واستمرار الربط الموضوعي المفهومي، أو الالتحام بين الأجزاء التي بها حاجة بعضها إلى بعض، ويتعلق بعضها بوساطة بعض، وكذلك المحتوى المدرك الذي يمكن استعادته أو تنشيطه بدرجات متفاوتة من الوحدة والاتساق في العقل^(٣)، وتحقيقه في البنية العميقة للخطاب، وإنَّ معيار الحبك أو الالتحام دلالة النص وتفسيره بوسائل منها: السببية والعموم والخصوص، وتنظيم الأعمال والأحداث والموضوعات والمواقف، ونظم ما يتصل بالتجربة الإنسانية.^(٤)

والْحَبْكُ تحليلُ النص على المستوى الموضوعي، والربط الإدراكي الذي يُنشئه النص بين الأحوال والمضامين الجمالية، والقضايا المعبر عنها في الجمل.^(٥) ومن أبرز أدوات التماسك عند هاليداي ورقية حسن: المرجعية، والإبدال، والحذف، والعطف، والتماسك المعجمي.^(٦) فأدوات الحبك أدوات شكلية: كالعطف، والتكرار، والمعجم، والرتبة، ودلالية: كالمرجعية، والإبدال، والحذف، والمقارنة، والتكرار بالمعنى، والترادف، والانضواء، والسببية الزمنية، والتخصيص، والتعميم، والتوكيد، والإضراب، والعطف.^(٧)

(١) الذاريات: ٧.

(٢) المحرر الوجيز: ١٧٢/٥.

(٣) نحو النص بين الأصالة والحداثة: ١٠٩.

(٤) نحو النص بين الأصالة والحداثة: ٨٣.

(٥) نحو النص بين الأصالة والحداثة: ٨٧.

(٦) نحو النص بين الأصالة والحداثة: ١١٠.

(٧) نحو النص بين الأصالة والحداثة: ١١٢.

ولا يمكن فصل الربط الرصفي أو السبك الذي عُرض سابقاً، من الربط الموضوعي الدلالي أو الحبك، وكلاهما يمثل الربط النصي؛ لأن النص (وحدة لغوية تواصلية... تدرك على أنها تكوين من علاقات توجد بين الجمل أو القضايا بوصفها العناصر المباشرة لبنية النص، وتحدث الربط الداخلي، أي التماسك الدلالي للنص... يرتبط كل منهما بالآخر ارتباطاً وثيقاً: المستوى النحوي، والمستوى الموضوعي).^(١)

ولا ينكشف المعنى إلا من السياق اللغوي والاجتماعي الذي أطلق عليه فيرث (سياق الموقف).^(٢)

فالحبك الترابط الدلالي والمفاهيم والتصورات المتشابكة المطردة المعروضة فيها تقدمه من آراء وأحكام.

وقد كان استعداد السيِّدة لإلقاء الخطبة متوقعاً، وتحديد موضوعاتها قبل يومها أكيداً، واختيار المفردات والتراكيب مهياً، إذ كانت هذه الخطبة على قدر ما يناسب الموقف، وقد أُحكِمَ نظمها وحبكها، واتضح هذا من نصّها اللفظي ومضمونها الدلالي، وأنها أرادت الإثارة والمخالفة الصريحة لما كان يُؤسّس، وتعديل وجهة النظر التي بدأت تظهر، والدعوة إلى تأمل مقاصد ما كان يُخطط، استناداً إلى قوّة الإفهام ووضوح الحجة، وتبيّن صلابة العقيدة.

أمّا معجم الخطبة فكان أساسه الاختيار، وذلك من ضمن إجراءات التخطيط للخطبة، وفيه أقوى مفردات الاعتراض والإثارة والتحريض والتهديد، استناداً إلى القصد والصرحة والثقة بالنفس، والتمكن من التأثير وتحريك النفوس.

فكان الفعل القولي فيها يبدو للمدقق يطابق الفعل الإنجازي، إذ يُنظر المختصون لهذه المطابقة، بأن (نصنع الأشياء بالكلمات... الأفعال اللغوية تنجز فعلاً وتوقع عملاً...).

(١) نحو النص بين الأصالة والحداثة: ١١١-١١٢.

(٢) نحو النص بين الأصالة والحداثة: ١١١.

أفعال أخبارية تقريرية وصفيّة يمكن أن نحكم عليها بالصدق والكذب، وأفعال أدائية إنجازية... موفقة أو غير موفقة... إجراء عرفي... فعل لفظي... فعل إنجازي... فعل تأثيري... الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي... الإيضاح كالاغتراض أو التشكيك أو الإنكار أو الموافقة أو التصويب أو التخطئة... تأويل النصوص باعتبارها أفعالاً لغوية كالوعود والتهديدات والاستفهامات والطلبات والأوامر... التداوليّة تقوم بتحويل مختلف الموضوعات إلى أفعال كلاميّة... ربط الفعل اللغوي بالقصد... فالقصد يحدّد الغرض من أيّ فعل كلاميّ، كما يحدّد هدف المرسل من وراء سلسلة الأفعال اللغوية التي يتلفظ بها... البعد عن الغموض وتحريّ الدقة... والملاءمة ومفادها ملاءمة المشاركة التواصلية للسياق التخاطبي... قواعد الصدق والقصد والإخلاص...^(١) و(كفاءة الباثّ وقدرته على اختيار فعل الكلام المناسب للسياق التداولي:

١. الاختيار التداولي التواصليّ.

٢. الاختيار المعجميّ.

٣. الاختيار الأسلوبيّ النحويّ... كترتيب المفردات... والجمل... وإحكام الروابط التي تؤدّي إلى التماسك).^(٢)

ويتضح هذا ممّا عرضناه، من إظهار الثنائيات المتناقضة أو المتطابقة، وكذلك من الترادف والتقابل، ومن ربط أفكار النصّ بالتأليف، وأيضاً من الإجمال والتفصيل، ومن الشهود والوقائع والمفارقة، ومن إدراك ما يحيط بالخطبة، من تنافر المواقف وتضادّها ومن فضح المغالطة بالحقائق.

فكانت البنية بنيتين: سطحيّة وأخرى تحتية، أساس توزيعهما الحبك الذي يستمد وجوده الفعلي من الشق الآخر للنصّيّة المتمثل في الموقف والقصد.

(١) الخطاب الأدبي ورهانات التأويل: ٨٩-٩١.

(٢) إشكالات النص: ٥٠٤.

فالنص وحدة متكاملة لا وجود للجزئيات فيه إلا بمقدار صلتها بالكل، فالجملة في النص لا تحلل أو تفهم في ذاتها، وإنما من النص بأكمله، تحليلاً نحوياً للنص، وتحليلاً دلالياً، وتحليلاً مقامياً.^(١)

ف (الحفر في طبقات النص... يقوم على علاقة تضاد... تنعكس على طريقة بناء الأفعال وتضادها... القارئ الذي كان في ذهن المؤلف حين أنجز عمله... القارئ بخبراته المتراكمة يملأ الفجوات التي تظهر من عدم توافق النص والقارئ في بدء الأمر... الحوار بين النص والمتلقي... خرق عتبات الزمان والمكان، وهذا ما يضمن له النمو والاستمرارية والتجدد بفعل القراءة... متجاوزاً سلطات التاريخ).^(٢)

فلاشتغال على محاور الخطاب وتفكيك أجزائه والحفر في طبقاته يكشف آليات التدخل، التي ربما حجبت جزءاً من الخطبة أو زادت عليها، أو سوّغت ما أنكر من ممارسات، استناداً إلى إمكانات السلطة في الاستبعاد والكبت والتحوير والخداع.^(٣) أمّا الإمكانات أو (استراتيجية) بناء النص، في جانبها العقلي الذهني فيتعلق بالخطط، وفي شقها المادّي الإجرائي الذي يتعلق بتنفيذ بعض الإجراءات لتلك الخطط، كالتفصيلات الجزئية.^(٤)

ومن العقلي الذهني حضور المتحدث وصفاتها وصدقيتها، إذ كانت المكانة العالية للزهراء من أبيها ﷺ عامل استشارة للعواطف، ومواجهتها بنفسها يوصل الخطاب إلى أبعد ما يمكن من مدى، وصريح إنكارها لما دُبر مهمّ في ردّ ما استندوا إليه من حجج، في حضور مؤثر يستدلّ بنصوص القرآن المباشرة غير القابلة للتأويل، إلى جانب الربط

(١) دراسات في اللسانيات التطبيقية: ٥٨.

(٢) الخطاب الأدبي، بوقرة: ٦٣.

(٣) اللسانيات وتحليل النصوص: ٣٣١.

(٤) إشكالات النص: ١٧٣-١٧٤.

بمركز الدعوة المبعوث رحمة، في منازعة من تولى الأمور.

أمّا التأمل في مكونات النصّ وخباياه فلاجل الفهم والبحث ما وراء المنتج النصّي والثقافي، التي هي أكثر من الفهم، فالنص بوصفه ظاهرة خطائية لغوية تتقبل تعدد القراءات، والتفكيك والاستنتاج أيضًا، والحوار بين النص وقارئه، وهما تجربتان تتفاعلان وتنصهران في ناتج جديد يعبر عنه بالمعرفة الحاصلة باندماج الأفق الفكري للمؤوّل، وأفق معنى النص، ومن التركيب الحاصل بينهما يحصل الفهم الكامل.^(١)

ودراسة العلاقة بين مستعملي الأدلة اللغوية «المرسل والمرسل إليه» وعلاقات التأثير والتأثير بينهما في ضوء ما ينتجانه من تهاور متصل، يجمع بين اختصاصات متعددة، إذ إنّ تحليل بناء الإمكانات (استراتيجيات) التخاطب في ظروف مختلفة، ومنها:

١. وصف المكونات التخاطبية في تعالقيها ببعضها قصد تحقيق أغراض تبليغية...
- تعدد الأصوات في الخطبة: الأنا والمخاطب والمخاطبون (الوظائف: تعبير المتكلم، فهم المتلقي، مرجعية الخطاب، قناة التوصيل، المعجم، الخطبة).^(٢)
٢. تحليل الكيفية التي يُستدل بها منطقيًا ولسانيًا في أثناء الكلام.
٣. تحديد أفضل أنواع الاتصال وتمييزها، وإظهار كفاءة النماذج الكلامية القائمة على الاستدلال أو الترميز.

٤. دراسة المعنى في صلته بالظروف.

أمّا خلاصة عرض السيدة لمحاوّر حبك المضمون الأساس فهي:

١. تثبيت المكانة السامية، لها ولابن عمّها: «أنا فاطمة، وأبي محمد دون نساءكم... رسول من أنفسكم أخو ابن عمي دون رجالكم.. أنقذكم الله برسوله ﷺ بعد اللتيا والتي.. كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفاها الله.. قذف أخاه في لهواتها، مكدودًا في

(١) آليات التأويل وتعدد القراءات: ٦١.

(٢) الخطاب الأدبي ورهانات التأويل: ١٩٠.

ذات الله.. قريباً من رسول الله، سيّداً في أولياء الله..»

٢. في المقابل: «كنتم ضعفاء، مُدقة للشارب.. ثم صرتم في رفاة لكنكم تتوكفون الأخبار.. خاملون تنكصون عند النزال.. أمّا بعده ﷺ فظهرت فيكم حسيكة النفاق.. واستجبت لداعي الشيطان.. وسقطتم في الفتنة.. فوسمتم غير إيلكم..»

٣. النتيجة أو المفارقة: «ترث أباك ولا أرث أبي! تزعمون أن لا إرث لنا! أفعلى عمدي تركتم كتاب الله؟!»

أولست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟! لعلكم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي! تقولون مات رسول الله! فتلك والله النازلة الكبرى والمصيبة العظمى، لا مثلها نازلة.. ما هذه الفترة في حقي والسنة عن ظلامي؟! أأهضم تراث أبي؟ فأنى حرتم بعد البيان؟ أنا ابنة نذير لكم!..

ثالثاً: المقصد Interntionality

قصْدُ منتج النصّ وغايته، وما يريده، وموقفه، بمراعاة قبول مستقبله، أو تأثيره في متلقيه، ليتحدّد مقام المخاطب الذي هو غاية الخطاب، فيعبّر المنتج عمّا في نفسه ويوصل المعنى المحدّد الذي خطط له.^(١)

وتتجلّى مقاصد خطبة السيدة، في السعي في النهضة وتغيير الرأي والموقف، وتعديل المسار، الذي بدأ يتأسّس، بعد رحيل النبي الكريم، وفي إظهار صور المنازعة مع الطرف الذي كان قد اجتهد لهذا التوجه الجديد.

فكان من دواعي البحث في هذه الخطبة، فهم مقاصد نصّها، ومحاولة تبين حقيقة ما حصل من أحداث خالفت النمط السابق لها؛ لأنّ الخطبة بُنيت على التمسك بثوابت، وردّت ما ترتّب من وقائع كانت قد طرأت، ومتصورات وتطبيقات كانت قد فرضت،

(١) لسانيات النص: ٨٤.

لهذا يمكن أن تكون هذه الخطبة منطلقاً لمراجعات نقدية مهمة، تساعد على تبيين الوثائق والآثار، انطلاقاً من ثرائها بالدلائل التي كانت لها، والتدليل الذي تمتلكه في الردّ على ادعاءات المحاور المخالف لها القديم والجديد، ويُقال إنّ حيوية القراءة في الممارسة النصّية كبيرة الأهمية بالنسبة إلى من يريد التأمل والكتابة، والخطبة أثّر حجاجي فني، وتسجيل واقعيّ مقيّد بأحداث، وتتابع لمتغيرات كبيرة، تتوافق وأجواء ما كان من حالة مدنية وتاريخية^(١)، وإسلامية.

فقد وجدنا أنّ كلّ عنصر في النص يؤدي إلى الآخر، وتسير هذه العناصر في اتجاه واحد، متوازٍ أحياناً، ومتداخل أحياناً أخرى؛ ذلك لأنّ كشف هذا التابع سيوصلنا في نهاية المطاف إلى تحديد هوية النص تحديداً شاملاً.

فما العملية الذهنية الرئيسة التي حاول باث الخطبة رسمها لبناء خطبته؟ وكيف رتّب عرض مضامينها؟

وما الخطط التي اختطّها لبناء نص خطبته؟^(٢)

إذ إنّ اختيار الوسائل العقلانية عامة مهم في الوصول إلى الغاية في أيّ خطبة من الخطب، وكذلك مجمل الأساليب المستعملة، وطريقة التصرف تبعاً لما يُعتقد أنه سيناسب تصرف الآخرين.

فالتخطيط والإجراء لما يناسب القصد من الخطبة، وتحقيق ما يُراد من الخطاب، هو في:

١. وجود قصد معين، كتبليغ معلومات، أو تحفيز سامع، أو طلب ترك عمل غير مرغوب به.

٢. خلق نشاط مقصود وتفاعلات ترتبط بالمعنى بهذا القصد ومن يشاركه

(١) آفاق التناصية: ٣٩.

(٢) نحو النص بين الأصالة والحداثة: ١٧٥.

بمضمونه.

٣. لوازم أساسية لإنتاج النص، كالخبرة والمعرفة بأحوال المخاطبين، التي يضع بحسبها المتكلم النتائج التي يسعى إلى تحقيقها، وتعيين طرائق الوصول إليها.^(١)

بدءاً من ترتيب الحجاج المنطقي المستند إلى الإحاطة بالأساليب والتمكن من المعرفة اللغوية، فكان منجز السيدة الخطابي على مراحل، اختتمته بالوعيد، وبرسم النتيجة التي تنتظر المخاطبين، والمتمثلة هنا في خطبتنا بالتهديد بسوء العاقبة، وهذا هو الأسلوب المعتمد في مواجهة مخالفتي الرسائل السماوية، ولا سيما نموذج ما جاء به القرآن الكريم في مثل تهديد نوح وعاد وهود وصالح لأقوامهم [ينظر قصصهم في سورة هود مثلاً]. فكانت حجج المحتجة على ترتيب، إذ ابتدأت بالحمد والثناء والاستدلال للتوحيد، ومن ثمّ التذكير بما أدّته الرسالة المحمدية في التحول من الظلمات إلى النور، وما أنجزه المبعوث رحمة للعالمين في التبليغ، ثم تدرّجت إلى تعليل شرائع الخير والرحمة التي نظّمت المجتمع، واستنّت بها الأمة، والتذكير بالحوادث الكبرى لحقبة البعثة النبوية الشريفة، وما كان من مواقف عظيمة لابن عمها وزوجها في تلك الأحداث، وكانت هذه هي ثمرات ما تحقق، استناداً إلى أسس الدين الحنيف.

ثم تحوّلت إلى عرض الحجج التي تردّ بها على ما اتّخذ من مواقف بعد رحيل المبعوث رحمة، وذلك بتقديم الأدلة القرآنية الواضحة، التي حققت الغلبة في الخصومة والمنازعة، فكانت مؤثرة في السامعين، وهي الحجج التي لا يمكن أن تُردّ في الجدل بين المسلمين.

وقيل: إنّ لفعالية حجج الخطاب ونجاحه شروط: منها مناسبتها وحجّيتها على السامع، واستعمال التقنيات المقنعة، وتوظيف النواحي النفسية وغيرها في تحقيق التأثير

(١) نحو النص، د. أحمد عفيفي: ١٧٦.

المطلوب، إذ اتسمت رسالة خطبة السيِّدة بهيمنة الحجاج، ووضوح الأسلوب، وترتيب النتائج على المقدمات، والمقدرة الفائقة على عرض الأدلة وإبطال حجج المعاند وتبديد مدّعياته، فكانت قد بلغت القصد الإقناعي استناداً إلى دقّة العرض، ولاسيّما في إظهار موضوع التغيّر عامة، والغفلة والظُلّامة التي كانت من آثار هذا التغيّر، فقوّة الحجج واضحة، والبراهين من الكتاب وغيره دقيقة.

وكان الخطاب الحجاجي قد بنى استدلالياً إلى أقوى الحجج الملزمة، التي لا يمكن أن يردّها الدين والمنطق والعقل، في محاولة تعديل فكرة المقابل، وردّ أطروحته، وتعديل توجهه.^(١)

فالْحِجَاجُ في الخطبة على مراحل، وعلى الترتيب بين الحجج، وبما يناسب حال المخاطبين، وبلهجات وأساليب خطاب متفاوتة الدرجات، وبحسب مقتضى الحال، من الرضا أو السخط، من مثل خطاب الودّ والتذكير بما كان للمخاطبين من مناقب، ثمّ التحوّل بإظهار الغضب والتهديد بسوء العاقبة، مثل: (يا بن أبي قحافة)، ونداء الأنصار ببني (قيلة)، ينتهي الحجاج بالتهديد الشديد بعذاب الآخرة، وبمواجهة النذير ﷺ يوم الحشر، يوم الحساب الأخرويّ.

ثمّ كان الربط المباشر بين التغيّر ورحيل الرسول ﷺ، في قولها: «فتلك والله النازلة الكبرى والمصيبة العظمى، لا مثلها نازلة» ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^(٢)، إيحاء إلى ظهور ما في البواطن من الإيمان الظاهريّ، وربطه بثواب الدنيا وبوجود النبيّ ﷺ، وسرعة التغيّر والخروج عن منهجه بعده مباشرة، فكان أن ردّت ما بدا من حجج التغير، وأشارت إلى السرعة في مخالفته ﷺ،

(١) الخطاب الأدبي: ١١٢.

(٢) آل عمران: ١٤٤.

«سرعان ما أحدثتم، وعجلان ذا إهالة، أما كان رسول الله ﷺ يقول المرء يُحفظ في ولده»، والعجلة في هضم حق أهل بيته، والميل إلى غيرهم، بالفتنة ﴿...أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا...﴾^(١)، ووسمتم غير إِبِلِكُمْ وأخذتم ما ليس لكم.

فكانت مقصدية منتج النص التنبيه على مكانة المخاطبين فيما مضى، وما حصل لهم من خير من اتباع الدعوة، والتحذير من التراجع عن التمسك بأسباب هذه المكانة، والانقلاب على مرجع المخاطبين في السابق واللاحق، والتهديد بما سيتنظرون بسببه من العقاب الشديد، ويثبت هذا التهديد من إعلان النعمة والغضب في لقاء ثانٍ لها ﷺ بنساء المهاجرين والأنصار، ووصيتها بعدم حضور دفنها أي أحدٍ من خصومها.

إنَّ السَّيِّدَةَ عَمَّرت عن موقف آل بيت النبي ﷺ مما جاءت به السقيفة من تدبير، وخطبتها فيما يبدو تنزع عن هذه السقيفة الشرعية، وتنبه على مخالفتها منهج والدها، وهذا هو مصدر الخطر الأكبر لهذه الخطبة.^(٢)

فكانت قد نبَّهت على أنَّ المسارعة إلى السقيفة علامة فتنة، على الرغم من دعوى اتِّقاء هذه الفتنة، وارتباط الاعتراض على مصادرة فذك علامة حسّية سيميائية للغضب، إذ يتدرّج الخطاب، نحو الاعتراض الكبير على تهوين ثاني الثقلين، وشرط مودة القريبى، ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(٣)، وعين التطهير ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(٤)، واسكات الآيات والأخبار في فضل العترة النبوية الطاهرة، والخطبة قصدت إظهار تغيير القوم، واضطراب أمرهم، لا مجرد ردّة فعل على ذهاب منفعة مادية كالاستيلاء على فذك.

(١) التوبة: ٤٩

(٢) الزهراء سيدة نساء العالمين: ١٠٤.

(٣) الشورى: ٢٣.

(٤) الأحزاب: ٣٣.

ولو عدنا إلى حجج السيِّدة لوجدنا استغرابها غفلة المخاطبين، وتهاونهم، وسرعة تراجعهم، عمّا صاروا إليه، في قولها: «كتاب الله بين أظهركم، زواجه بيّنة، وشواهد لائحة، وأوامره واضحة، أرغبة عنه تريدون، أم بغيره تحكمون، بئس للظالمين بدلاً، ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يُقبل وهو في الآخرة من الخاسرين».^(١)

فتستشهد للإرث بخمس آيات: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾^(٢)، ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾^(٣)، و﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾^(٤)، و﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾^(٥)، و﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْأَدْنَى وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾^(٦) «ثم أنتم الآن تزعمون أن لا إرث لي»^(٧)، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(٨)، ما أسرع ما أحدثتم وما غيرتم، «أبى الله أن ترث أباك يا بن أبي قحافة، ولا أرث أبي، لقد جئت شيئاً فرياً!»^(٩).

وفي الحوار بينهما:

«من يرثك؟»

قال: أهلي وولدي.

(١) شرح نهج البلاغة: ١٦ / ٣٧٢.

(٢) النمل: ١٦.

(٣) مريم: ٥ - ٦.

(٤) الأنفال: ٧٥.

(٥) النساء: ١١.

(٦) البقرة: ١٨٠.

(٧) شرح نهج البلاغة: ١٦ / ٣٤٥.

(٨) المائدة: ٥٠.

(٩) شرح نهج البلاغة: ١٦ / ٣٤٦.

فقالت: «ما لي لا أرث أبي؟»

قال: سمعت رسول الله يقول: لا نُورث.

«أفي كتاب الله أن ترث ابنتك ولا أرث أبي؟!»

ثم يُحَسِّمُ الأمر بحديث يردّ جميع ما تقدّم، فيذكر أنّه يقوم مقام رسول الله ﷺ في التصرف، ولا سيما فيما ترك صاحب المقام الكريم ﷺ، من مثل فذك أو الإنفاق المُخْتَلَف فيه، ويتضح هذا من قوله: «يا بنت رسول الله إنّ النبي لا يُورث، لكن أنفق على ما كان ينفق عليه رسول الله وأعطي ما كان يعطيه، قالت: والله لا أكلمك بكلمة ما حييت، فما كَلَّمْتَهُ حتى ماتت»^(١).

وبهذا يتضح ثبات مضامين الخطبة في الاعتراض والمنازعة استناداً إلى: الاختلاف في مواجهة الموقف السياسي الذي يحاول امتصاص النعمة وإظهار اللين بحضورها، والثاني الغضب المهدّد لمن يتعاطف معها بعد الخطبة، والثالث التراجع والاعتذار المتأخر مثلما سنعرض.

لكن ما السلطة المتحكّمة؟

وما المرجع الذي يُرجع إليه بعد الحجج القرآنية؟

أعني من الذي يقضي وَيَفْصِلُ وَيُنْفِذ الحكم؟

والإجابة كانت قد سبقت الخطبة نفسها، ولا سيما ما كان قد دُبّر في السقيفة، وكذلك الاستحواذ على فذك، فيما لم يكن للمتظلمة إلّا إعلان رأي أهل البيت ومن ثمّ السكوت والاحتساب، والتهديد بسوء العاقبة يوم الحشر.

أمّا سلطة خطاب السيدة، التي ضمنت لها حرّية التعبير، وكفلت لها حق مخاطبة مجتمع المسلمين بهذه الحدة والجرأة والصراحة، فهي المقام الكبير، الذي كان لها في ذلك

(١) كشف الغمة: ١/ ٤٧٧.

المجتمع، والذي أكدته بـ (الأنا)، وبفضل الصلة المباركة بوالدها النبي الكريم، وكذلك الكفاءة الحجاجية، وقبول المخاطبين، في ظلّ ما كان قد بُني من المؤسسة العلميّة والثقافيّة التي أنشأها والدها ﷺ.

رابعاً: القبول Acceptability

يتحقّق قبول الخطبة رعاية موقف المتلقي، واستعداده لقبول النص، والقبول مرتبط بالمقام وبمجموع الدلالات التي يعرضها النص نفسه شرط تماسكها واتحافها وتحديدتها، بعيداً عن الاحتمال الدلاليّ المشوش، أو الغموض وجواز أكثر من وجه، وإذا كانت المقبوليّة ترتبط بالمنتج والمتلقي كليهما، فهي ترتبط أيضاً بالظروف والسياق والموقف، فهذه كلها تساعد على الحكم بالقبول أو عدمه، وهي التي تجعل النصّ مرتبطاً بموقف معين، وظرف يمكن استرجاعه في الذهن، وتصور ما حصل فيه.^(١)

ويمكن القول إنّ عدم رضا المتلقي، أو رفضه لمضمون الخطبة، أو مخالفته لها، جملة أو تفصيلاً، لا يعني عدم التواصل، أو عدم الإصغاء، أو عدم التفاعل، فربّما يتلقّى أو يتقبّل ليردّ أو ليعدّل.

والقبول هو التعلق بما يلزم المتلقي الرضا بالنص، فما يؤثّر في القبول آراء المتلقي، وخلفيّاته، ونظراته إلى شخصيّة المنشئ، ومقاصده، ومقامه الثقافي والاجتماعي، وحكمه على مضمون النص وتفسيره له، ومصالحته، وصلته به.^(٢)

فالربط بين أجزاء النص ومضامين هذه الأجزاء، وكلّ حالة وحادثة بالتجارب السابقة المشابهة، وكذلك ما استقر عنده من أقيسة ذاتية مخزونة في ذاكرته، فيعرض النص مع ما يلائمه، بوصفه نمطاً جديداً جاء به هذا النص، فلا بُدّ من لحظ الفارق

(١) نحو النصّ بين الأصالة والحدّثة: ٨٤.

(٢) مدخل إلى علم لغة النص: ١٢.

بين المستقبل متلقي النص ومنشئه، ولا يمكن أن يكون الفهم أو القبول واحداً دائماً بين الطرفين.^(١)

وهناك ما يُشير إلى التلقّي الإيجابي في خطبتنا، واستعداد المخاطبين للقبول منذ اللحظة الأولى، لما سيُلقي على مسامعهم من خطاب، وهذا ما اتضح فيما قبل مقطع الافتتاح، فضلاً عن اعتماد الخطبة نفسها المنطق الذي يستند إلى ثوابت الإسلام، وأسلوب الإقناع والمراجعة العقلية.

وربما كان الأهم هو قبول المعني المباشر بالخطاب، إذ يُلاحظ التذبذب في قبوله، فيروى عنه صدور موقفين مختلفين، أحدهما كان لمجرد امتصاص النقرة بعد الخطبة مباشرة، وذلك لعبور الموقف الصعب، الذي وضعته فيه هذه الخطبة أمام المهاجرين والأنصار، والآخر غيره، مثلما عرضنا وسنستكمل لاحقاً.

فقد مارس المعني الأول بهذه الخطبة إمكان (استراتيجيات) تعديل أثر النص، (وامتصاص خطاب الآخر، والتقليل من درجة موضوعيته) وأحقّيته في أذهان المخاطبين، وقد استعان بإمكانية (استراتيجية) تلطيف الخطاب، التي تعني فيما نحن فيه، إضعاف ما جاءت به الخطبة، وتخفيف قوة الفعل الذي أنجزته، ومحاولة إزالة ما جاء به هذا الفعل؛ لأنّ المضمون غير مرحّب به عند المعني، وقد بلغ سماع الخطبة مجموع المخاطبين وتحقق ما كان يرجو المنشئ منها.^(٢)

ويعرض الباحث «من باب الاستئناس برأي المحدثين» حجاج المعني الذي كان قد اعتمد ما يُسمّى عند هؤلاء المحدثين بتقنية (الحجاج الخاطي)، الذي (يبنى على المغاظة في تقديم الحجة... المقايضة الواهمة... في تقديم حكم الهوى والعواطف والعصبية على حكم العقل والواقع والأمانة... الحجاج بالسلطة... فلسفة القوة المثقفة... المتغلبة على

(١) نحو النص، بين الأصالة والحدثة: ٢٦.

(٢) ينظر: تعديل القوة الإنجازية، محمد العبد: ص ١٤٢، عن الخطاب الأدبي: ١٢٣.

الآخر على الرغم من حكم البداهة وحكم العقل... حجة التبرير... تعدد الوظيفة التصديقية في الحجاج حملا على التصديق بعظمة المتكلم [مركزه]... وهذا ما يطبع الوظيفة التصديقية... وبعدها التعظيمي... وحمله على إنجاز فعل أو تركه بناء على تلك السلطة التصديقية المحققة... وبهذا ستصبح كل النتائج المتحصلة من مقدماتها أفعلاً طلبية إلزامية وإقصائية...»^(١).

فكان المعني قد استظهر عليها بقوة التدبير وحسن التخلص ولين الحديث، وفوق ذلك بقوة السلطة^(٢).

فكانت رفته في جواب السيّد في المجلس من جملة معالجة الموقف الصعب، ومحاولة استيعاب شدة الموقف السياسي بلباقة وحنكة، وذلك للتهوين من تأثير الحجاج القرآنيّة المعروضة، يتبيّن هذا من تغيرّ اللهجة بعد خروجها، فالجواب الأوّل أخفى المخاطب المعنيّ بالخطبة ما يريد، فكانت لهجته في خطابها ودّيّة، في قوله: «يا بنّة رسول الله، والله ما خلّق الله أحبّ إليّ من رسول الله... والله لأنّ تفتقر عائشة أحبّ إليّ من أن تفتقري...»^(٣)، وفي الثاني أظهر غير هذا، ولاسيّما بعد ما وجد ما شقّ عليه من صخب الناس وشدة تأثير الخطبة فيهم، ذلك يتأكّد في كلامه اللاحق بعد أن اتّخذ بعض الإجراءات التي تخفّف من وطأة هذه الخطبة وأثرها في الناس، فقد «صعد المنبر وقال: أيها الناس، ما هذه الرّعة، إلى كلّ قاله؟! أين كانت هذه الأمانيّ في عهد رسول الله ﷺ؟! ألا من سمع فليقل، ومن شهد فليتكلم، إنّما هو ثعالة شهيد ذنبه، مربّ لكلّ فتنة، هو الذي يقول: كرّوها جذعة، بعدما هرمت، يستعينون بالضعفة، ويستنصرون بالنساء، كأمّ طحال، أحبّ أهلها إليها البغيّ، ألا أنّي لو أشاء أن أقول لقلت، ولو قلت لبحت،

(١) الخطاب الأدبي: ١٦٢-١٧٣.

(٢) نهاية التحقيق: ١٥٧.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٦ / ٣٤٦.

وإني ساكتٌ ما تُركت، ثم التفت إلى الأنصار فقال: قد بلغني يا معشر الأنصار مقالة سفهائكم، وأحقّ من لزم عهد رسول الله ﷺ أنتم...»^(١)

فنصّ المعنيُّ هذا «إن كان صحيحاً» فهو يتحدث عن أمور بعيدة عن المطالبة بإرث دنيويّ، ولتأمل أسئلته وتهديده:

ما هذه الرعة إلى كلّ قالة؟

أين كانت هذه الأمانيّ في عهد رسول الله؟

من سمع فليقل؟ ومن شهد فليتكلم؟

يستعينون بالضعفة، ويستنصرون بالنساء...

قد بلغني يا معشر الأنصار مقالة سفهائكم...

لا يمكن تفسير تباين موقف المعنيّ بالخطبة، بين اللين والشدة، في جوابين متناقضين متقاربين زمنياً، إلا من السياسة والدهاء والتمكّن من السيطرة على المشاعر، فمرة يسلم لها ويكون حيناً ليناً، ويتغيّر من الهدوء إلى الغلظة والشدة والتهديد مرة أخرى.^(٢)

ثم يعود إلى خطاب اللين مرةً ثالثة، ذلك الذي يتمثّل بمقطع الندامة والتراجع والاعتذار وطلب العفو في مرحلة لاحقة، في حوار استئذان الإمام في الدخول على السيدة: «أيتها الحرة، فلان وفلان بالباب يريدان أن يسلمّا عليك، فما ترين؟ قالت البيت بيتك والحرّة زوجتك، فافعل ما تشاء... فدخلوا وسلموا، وقالوا: أرضي عنا، رضي الله عنك... إن كنتما صادقين فاخبراني عمّا أسألكما عنه... نشدتكما الله هل سمعتما رسول الله ﷺ يقول: فاطمة بضعة مني، فمن آذاها فقد آذاني؟ قالوا: نعم، فرفعت يدها إلى السماء فقالت: اللهم إنهما قد آذاياني، فأنا أشكوهما إليك وإلى رسولك، لا والله لا أرضي عنكما أبداً، حتى ألقى أبي رسول الله وأخبره بما صنعتما، فيكون هو الحاكم

(١) شرح نهج البلاغة: ١٦ / ٣٤٧-٣٤٨، ودلائل الإمامة: ١٢٤.

(٢) فذك في التاريخ: ٦٨.

فيكما»^(١).

ويُروى ما تقدّم أيضًا أن قال عمر لأبي بكر: انطلق بنا إلى فاطمة فإنّا قد أغضبناها... فانطلقا فاستأذنا عليها، فلم تأذن لهما... فأتيا عليًّا فكلّماه، فأدخلهما... فلما قعدا عندها، حوّلت وجهها إلى الحائط... فسلما عليها، فلم تردّ عليهما السلام... فتكلّم أبو بكر... فقال: يا حبيبة رسول الله... والله إنّ قرابة رسول الله أحبّ إليّ من قرابتي، وإنك لأحبّ من عائشة ابنتي، ولوددت يوم مات أبوك أن متّ ولا أبقى بعده، أفتراني أعرفك وأعرف فضلك وشرّك وأمنعك حقّك وميراثك من رسول الله؟ ألا إنّني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تُورث ما تركنا صدقة... فقالت:

«أرايتكما إن حدّثتكما حديثاً عن رسول الله ﷺ تعرفانه، تفعلان به؟ قال: نعم قالت: نشدتكما الله: ألم تسمعا رسول الله يقول: رضا فاطمة من رضاي؟ وسخط فاطمة من سخطي؟ فمن أحبّ فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟ قال: نعم سمعناه من رسول الله.

إنّي أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني، وما أرضيتماني، ولئن لقيت النبي ﷺ لأشكوّنكما.

فقال أبو بكر: أنا عائد بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة... ثمّ انتحب أبو بكر... حتى كادت نفسه أن تزهد.

وهي تقول: والله لأدعون الله تعالى عليك في كلّ صلاة أصليها... قال أبو بكر... أقيلوني بيعتي... إنّ الزهراء أجلّ من أن تطلب ما ليس لها حق

فيه»^(٢).

(١) كتاب سليم بن قيس: ٣٩١-٣٩٢، وينظر الإمامة والسياسة: ٢٠/١، وشرح نهج البلاغة: ٣٩٣/١٦.

(٢) الإمامة والسياسة: ٢٠/١-٢١، ٣١، وفاطمة الزهراء والفاطميون، العقد: ٦٧.

ومن مثل ما تقدّم من شهادات القبول ولو متأخرة، تلك التي تعبّر عن الأسف والتراجع، قول المعني: (فوددت أنّي لم أكن كشفت عن بيت فاطمة وتركته، ولو أغلق على حرب...)^(١).

ويروي الذهبي الخبر نفسه في ميزان الاعتدال: «إنّي لا آسى على شيء إلا على ثلاث ووددت أنّي لم أفعلهنّ: ووددت أنّي لم أكشف بيت فاطمة ولو أغلق على حرب، ووددت أنّي يوم السقيفة قذفت الأمر في عنق أبي عبيدة أو عمر... إلخ»^(٢).

خامساً: الإعلامية Informativty

الإعلامية: هي المعلومات التي يتضمنها النص، أو الإخبار التي تتعلق بمعلومات واردة فيه، من توقع حدوثها، أو عدم توقعها، ومن حيث الجدة والتنوع، وليس مجرد معلومات لا أهمية لها يحتويها النص، وإنما تتمثل في جدة هذه المعلومات، وكلما قل احتمال المتلقي لها، ازدادت جاذبيتها، ومستواها الإعلامي، وكلما بعد احتمال ورودها، ارتفع مستوى كفاءتها الإعلامية^(٣)، والإعلامية العامل المؤثر في عدم الجزم في الحكم على النصوص أو الوقائع، فالنصوص متقابلة والبدائل ممكنة.^(٤)

والإعلامية مناسبة النص للموقف، كتوقع المخاطبين معلومات مهمة، أو توضيح لمواقف ملتبسة، وهذا متوافر في هذه الخطبة، إذ إنّ السياق سياق الصدمة الكبرى بوفاة رسول الله ﷺ، وما أفرزه هذا السياق من تدبير مواقف جديدة، كانت قد اتخذت في السقيفة، أو من توقع ردّة فعل تناسب عموم ما حصل يتجاوز (منع فاطمة فدكاً). وتتأكد هذه المناسبة من نجاح التفاعل في حينها، من بدئها حتى منتهاها، ومن

(١) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٩٠.

(٢) وينظر تاريخ الأمم والملوك للطبري: ٢/ ٦١٩.

(٣) علم اللغة النصي، الفقي: ١/ ٣٣، ونحو النص بين الأصالة والحداثة: ٩٦.

(٤) النص والخطاب والإجراء: ١٠٣ - ١٠٥، ونحو النص بين الأصالة والحداثة: ٨٤.

إدراك حجم التأثير الذي أحدثته، ومنه كذلك خلود الخطبة، وتحريكها النفوس، وإيقاظها الضمائر، وكشفها المزاعم، التي تفرز الموقفين المختلفين، في كل زمان ومكان، ومن خطورتها أن جرى حجبها ومحاسبة من اعتنى بها مثلما عرضنا سابقاً.

وتحيط بنص الخطبة معلومات مثيرة قبل صدورها وبعده، إذ تعرّف بأجواء ما حدث من صراع، من مثل التعبير عن رأي أهل البيت فيما جرى، فمن هذه الآراء التي تسند ما تقدّم، ومما أحاط بالخطبة من خارجها، ما عرضه ابن قتيبة لرأي عليّ عليه السلام في بيعة أبي بكر: «وهو يقول: أنا عبد الله وأخو رسوله، فقليل له بايع أبا بكر، فقال: أنا أحقُّ بهذا الأمر منكم، لا أبايحكم وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الأمر من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي صلى الله عليه وآله، وتأخذونه منّا غضباً؟ أستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم، وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار، نحن أولى برسول الله حيّاً وميتاً، فانصفونا إن كنتم تؤمنون، وإلا فبؤؤوا بالظلم، وأنتم تعلمون، فقال عمر: لست متروكاً حتى تبائع، فقال له عليّ: «احلب حلباً لك شطره، واشدد له اليوم أمره يردّد عليك غداً»، ثم قال: «والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبايعة»، فقال له أبو بكر: فإن لم تبائع فلا أكرهك، فقال أبو عبيدة ابن الجراح لعليّ كرم الله وجهه: يابن عمّ إنك حديث السنّ وهؤلاء مشيخة قومك، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك، وأشدّ احتمالاً واضطلاعاً به، فسلم لأبي بكر هذا الأمر، فإنك إن تعش وبطل بك بقاء، فأنت لهذا الأمر خليق وبه حقيق، في فضلك ودينك، وعلمك وفهمك، وسابقتك ونسبك وصهرك، فقال عليّ كرم الله وجهه: «الله الله يا معشر المهاجرين، لانخرجوا سلطان محمد في العرب عن داره وقعر بيته، إلى دوركم وقعور بيوتكم، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه، فوالله يا معشر المهاجرين، لنحن أحقّ الناس به، لأننا

أهل البيت، ونحن أحق بهذا الأمر منكم، أما كان فينا القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بسنن رسول الله، المضطلع بأمر الرعية، المدافع عنهم الأمور السيئة، القاسم بينهم بالسوية، والله إنه لفينا، فلا تتبعوا الهوى فتضلّوا عن سبيل الله، فتزدادوا من الحق بعداً»، فقال بشير بن سعد الأنصاري: لو كان هذا الكلام سمعته الأنصار منك يا علي قبل بيعتها لأبي بكر، ما اختلف عليك اثنان، قال: وخرج عليّ كرم الله وجهه يحمل فاطمة بنت رسول الله ﷺ على دابة ليلاً في مجالس الأنصار تسألهم النصر، فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل ولو أن زوجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به، فيقول علي كرم الله وجهه: أفكنت أدع رسول الله في بيته لم أدفنه، وأخرج أنازع الناس سلطانه؟ فقالت فاطمة: ما صنع أبو الحسن إلا ما كان ينبغي له، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم^(١).

ولا بُدّ لنا أن نلتفت إلى ما تعتمد عليه وسائل الإعلام قديماً وحديثاً في مثل هذا المقام الذي نحن بصدد، موقف الاختلاف والافتراق، إذ تعتمد أفكار وبرامج واستراتيجيات، في التخلص من الرأي المخالف، وإبعاده عن التداول ولاسيما رأي المغلوب، أو في الأقل إخفائه عن عامة الناس وغالبيتهم، من مثل فرض الغموض والإيهام بما يحيط به، وكان من الخطط إبعاد المسلمين عن مراجعته والتفكير فيه، وتحريم تداوله، والتشكيك بما ظهر منه، حرمة دينية وفكرية وسياسية.... الخ

فبعد رحيل المبعوث رحمة، كثر التشويش على تداول التنازع والاختلاف، على الرغم من تباعد الأزمان والحقب، فمنذ مئات السنين، والأمر هو هو، إذ كانت الجهود تبذل في التوجيه إلى فرض ما يريده من غلب، وتكييف الخطاب لمصلحته، والتسويق لما يدافع عن رأيه، وصياغة الأخبار لما يُناسبه؛ لأنّ الإعلام يخدم الأنظمة والهيئات الراعية

لهذه الوسائل^(١)، في القديم، وكذلك في هذا العصر.

أمّا مجتمع سيدة النساء ولا سيما أهل بيتها، فقد حافظوا على تراثهم، وسيلة من سائل الدفاع عن حقهم وميراثهم، ووثيقة من وثائق الإعلان عن التغيّر الذي حصل، وتوضيح مواقف الأشخاص والجماعات، وما ظهر من أصوات، كان قد أخرسها الوجود النبوي في زمنه ﷺ، فيما كانوا لا يقاربون ما كان لرسول الله وأهل بيته، لكنهم أسرعوا إلى ما توهموه من مغنم عندما قبض الرسول ﷺ، وقد استجابوا لدعوات الشيطان، مبادرين إلى أخذ ما ليس لهم، والنهل من غير مشربهم، في قولها: «اطلع الشيطان رأسه صارخاً بكم، فدعاكم فألفاكم لدعوته مستجيبين... ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً، وأحمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إيلكم، وأوردتموها غير شربكم، هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لمّا يندمل»^(٢)، فكانت مثل هذه الشهادة مهمّة لما يدعون ويطالبون، إذ تُنبئ عن المكانة الإعلاميّة العالية لهذه الخطبة التي بلغت في التبين أقصى الغايات، حتى كأنّ سيدة النساء قد أعدّت لتؤدّي هذه الخطبة المباركة، وكأنّ هذا هو واجبها العظيم والأخير، وهي رسالتها في حينها في التبليغ والإنذار، من الغفلة والسهو والتغاضي، وعدم التمحيص، والمتابعة والتقليد، فالخطبة الانموذج الآخر من نماذج التنبيه على الخوف من انهدام البناء الذي أسسه والدها ﷺ، والتحذير من أنّ الهلاك في غلق أبواب التفكير فيما حدث، وتركه وعدم الاستجابة لما أثارته، فكانت الأحداث في حينها قد تسارعت واختلطت، وإعلاميّة الخطبة عبّرت عن الحدث في زمنه، ونبّهت على ما كان وسيكون من آثاره، وأظهرت عمّا كان في النفوس، وهي من مثل خطب الرسول ﷺ، وخطب نهج البلاغة، التي تتجدّد أهميّة في كل عصر. ثمّ كان لاختيار المكان مسجد والدها ﷺ الرسالة الإعلاميّة الواضحة، التي

(١) ينظر النص والخطاب، شتيفان هابشايد: ١٤٣-١٤٤.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٣٧٢/١٦.

تتضمن التبليغ المهم إلى الموجودين فيه، والإعلان عما تريد البوح به، إذ لم تختبر غيره، ولم تخرج وحدها، بل معها ثلثة من النساء، من أترابها وأهل بيتها، وهذا له دلالة إعلامية أيضاً، وقد وضعوا حاجزاً بينها وبين من في المجلس، وقد استوفت خطبتها مستلزمات التوصيل الصحيحة، ومنها ترتيب موضوعات الخطبة وتنسيقها، والالتزان وعدم الاضطراب، والتلقائية والارتجال، وتجنب المغالطة، والتهريج، والتشنيع، وكل ما يؤثر في مكانتها، وشخصيتها العظيمة، الفذة، القارة عند المخاطبين، الموصوفة بسيدة نساء أهل الجنة، أو سيدة نساء العالمين، فضلاً عن الفصاحة، والبلاغة وقوة المنطق المعتمد، والحجة الواضحة، والبرهان القاطع، والدليل الذي لا يُداني.

فالنصّ على الرغم من كونه نصّ توتّر وتهديد وتحشيد، في لحظة تاريخية فاصلة، لكنّه اتسم بالموضوعية والالتزان، والحوار والدعوة إلى المراجعة، إذ تقول: «فأني حرّمت بعد البيان، وأسرّتم بعد الإعلان، ونكصتم بعد الإقدام؟!»، والتفكير في عدم الضياع في متاهة الصدمة، وقد ابتعدت عن الانفعال الذي يفقد غيرها التوجه الصحيح والقول الفصل، فكان النصّ نصّ استنهاض المخاطبين، والانفتاح على اللاحقين الذين سيقروّون ويتفكّرون، وإلى تأمل ما حدث، ولاسيّما ذلك التأمل الذي يستند إلى تعدّد القراءات، أيّاً كانت ثقافة القارئ، والمنطلقات التي ينطلق منها، بدءاً مما أثّره من تفاعل، واستجاب لها الجمع الذي كان في المسجد، بعد ما لا يزيد عن عشرة أيام أو إسبوعين أو أكثر على رحيل النبيّ الكريم ﷺ، وانتهاءً بالاعتبار بالتهديد بسوء العاقبة الذي أطلقته.

ففي الخطبة الردّ الكبير على (زعم الاختيار وخدعة الشورى، وكذب الفلّة، وقد كشفت حقيقة المعادلة المنظورة يومئذ بين المهاجرين والأنصار في تنازعهم الحكم، منّا الأمراء ومنكم الوزراء، وإنما كانت خداعاً في خداع، لاقتناص السلطة ونتيجة تأمر

سابق وأمر قد دُبر بليل...^(١)، قال الصنعاني: «إنَّ بيعة أبي بكرٍ فلتة، وقد كانت كذلك، إلا أن الله وقى شرَّها».^(٢)

فكانت سيدة النساء الناقمة في ردِّها، والشاهدة، والمبلَّغة، والمواجهة، لما كان يُدبر، والمنبِّهة على ما سيلاقيه المخاطبون، ومن سيتابعهم من بشاعة المصير، فكانت الأنا الشاخنة: الإعلان الصادق، الذي لا يقف تأثيره عند حدٍّ من الحدود، والإعلام الخالد الذي ما استطاعت كلُّ الوسائل في التغطية على وجهه.

لهذا ف (الأنا) في الخطبة مطمئنة واثقة مشبعة بقيم الرسالة، وشرف (الأنا) أنها معرَّفة بـ(أبي) برسول الله ﷺ، مضافة لمقامه، ومنتسبة إليه، فلا شكَّ في أن من يجافها ويتنكَّر لها ويتجاهلها سيكون في خانة الهالكين، أمَّا الآخر المعبر عنه بـ (أنتم)، فعلى الرغم من إمساكه بزمام الأمور، لكنه منفصل عن حجج الكتاب، استنادًا إلى مضمون الخطبة.

فهل أدَّت إعلامية الخطبة في حينها الذي أريد منها؟

أكانت محض تهديد لم يُلتفت إليه؟

وافترض تنبؤات لم يُعبأ بها؟

أم كانت مجرد إعلام وصرخات مُدوية تجاهلها المعنيون؟

لكن ما مدى قوتها ووضوحها في أذهان المتلقين اللاحقين؟

وهل بلغت المقام المحفوظ لسيدة النساء؟

أقول: إنَّ الأمر كلُّه يتعلَّق بوعي المتلقِّي اللاحق والتفاتة إلى وزن الأمور على

حقيقتها، ومعرفة مقام الزهراء سيِّدة النساء.

هذا والإعلام المهم الذي أدَّته هو تنبيه الأمة على مخالفة القرآن الكريم (أفعل عمد

(١) نهاية التحقيق: ١٥٧.

(٢) المصنف: ٥/ ٤٤١، وغريب الحديث: ٢/ ٢٣١.

تركتم كتاب الله)، وما جاء به الرسول، وبالسيرة القائمة بين العقلاء، وإلا فإن زهدا وصدقها وإعراضها عن الدنيا هو المعروف، والمتفق عليه بين المسلمين، ومن المأثور ما يُذكر عن أحبّ الناس لرسول الله ﷺ، أنّه «لما سئلت عائشة من كان أحبّ الناس إلى رسول الله ﷺ قالت: أمّا من الرجال فعليّ، وأمّا من النساء ففاطمة»^(١).

وخطابها يدلّ على مقامها، بشهادة عائشة: «أُتِيَها كانت إذا ذُكرت فاطمة بنت النبي ﷺ، قالت: ما رأيت أحداً أصدق لهجة منها إلا أن يكون الذي ولدها، هذا حديث صحيح ولم يُخرجاه»^(٢).

سادساً: المقاميّة Situationality

ويُعنى بها مناسبة النصّ للموقف والمقام، والاهتمام ببنية السياق والعلاقات المتصلة بهذا النص، إذ يفهم النصّ في ضوء هذه المناسبة، أو العوامل التي تجعل النصّ مرتبطاً بموقف سائد يمكن استرجاعه في التصور والذهن، ويأتي النصّ في صورة عمل، يمكن له أن يراقب الموقف، وربما يستطيع أن يغيّره في حينه^(٣)، أو يُغيّر آثاره فيما بعد. وكان مفسرو القرآن الكريم وغيرهم قد أدركوا أهمية المناسبة، أو المقام في فهم النص، حيث فسروا الآيات في ضوء مناسبتها للموقف وسبب النزول^(٤).

ففي التحليل المقامي التداولي pragmatics، يُبحث فيما يتوسط بين الدلالة والنحو، ليظهر ما لا يظهر فيهما، ولا سيما ما يتصل بالمتلقي، والأثر الذي يتركه صاحب الخطاب فيه، في السياق الاجتماعي (المرجعي) للخطاب، وفي هذا الشأن لا بُدّ من مراجعة مجموعة مقامات الزمان والمكان ومنتج النصّ والمخاطبين به، من

(١) شرح نهج البلاغة: ١٧٤/١٣.

(٢) المستدرك على الصحيحين: ١٦٠-١٦١/٣.

(٣) النص والخطاب والإجراء: ١٠٤.

(٤) نحو النص بين الأصالة والحداثة: ٢٦، ٩٥-٩٦.

مثل التعبيرات الموحية، كتعبيرات الوجه والجسد وحركات الأيدي، تلك التي تدلّ عليها سياقات النصوص الاجتماعية والثقافية، وهذا هو الذي يُدرّس في التداولية، أعني دراسة الاستعمال اللغويّ، أي دراسة وظيفة تفاصيل هذه المقامات والمقاصد، وما يتصل بالتراكيب والدلالات من قريب أو بعيد، فالتداولية: تثلث النحو والدلالة، إذ تتصدّى لدراسة الأبعاد النفسية والاجتماعية والثقافية للمرسل والمتلقي، وهي علم الاستعمال اللغويّ وحلقة الوصل بين العلوم اللغوية ذات الصلة، بعدّها الواسطة بينها. فنصّ الخطبة التي نحن بصدها يتصل بمقام الرسول ﷺ، الذي كان حاضرًا فيها، بل دارت بمدار ارتباطها بهذا المقام، فهو ﷺ موجود من قبل البدء بها، ومما قبل مفتتحها، أعني مقطع التذكير بفقدانه، والآنة المعبرة عن هذا الفقدان، الآنة التي اجتلبت التعاطف والإجهاش بالبكاء، وكذلك بعد اختتام هذا النصّ، إذ كانت قد توجهت إلى قبره الشريف ﷺ والمخاطبون يتطلعون إلى ما بعد الخطبة فإذا هي تندبه، وتنشد أبيات الشكوى:

«قد كان بعدك أنباء وهنبشة لو كُنتَ شاهدَها لم تكثرِ الخطبُ
إنّا فقدناك فقدَ الأرضَ وابلّها واختلّ قومُك فاشهدهم ولا تغبُ
فليت بعدك كان الموت صادفنا لا قضيتَ وحالت دونك الكتبُ»

وزمن الخطبة يتراوح ما بين الماضي البعيد زمن ظهور الرسالة، والماضي القريب زمن رحيل المبعوث ﷺ، والزمن الحاضر زمن الخطاب، وزمن المستقبل زمن انتظار الوعد والوعيد.

واعتمدت في التوصيل التمييز بين ما لها وما للمخاطبين، وقد تجسدت لغة خطابها (بتجسد الإنسان ناطقًا... الناطق فردًا كان أو مجموعة، يكون ذلك بجريان (أنا) أو (نحن)... فالإشارة المباشرة الوحيدة الجامعة بين الجسد حاضرًا في المكان وفي الزمان

(أو في الوعي)، ومُحدِّثًا للغة منشأً لجسدها في الزمان الوجودي، إنما تتجلى في اللحظة التي يوجد فيها الجسد في اللغة، وتوجد اللغة بالجسد، هي لحظة النطق والتكلم، هي استعمال الضمير أنا... فلحظة الإشارة بكلمة أنا إلى الجسد المتكلم... بها يتحوّل المتكلم من الوجود المتجسد فيزيائيًا إلى التجسد التواصلّي... الاجتماعي... الأنا في مواقع الخصومة أو الجدال الحادّ في الكلام العفوي^(١)، ف«الأنا» في هذه الخطبة: المبدأ، والموقف، والثبات، والتأثير في الزمن المتجدّد، «الأنا» المشبهة لرسول الله ﷺ (عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها)، أنها قالت: «ما رأيت أحدًا كان أشبه كلامًا وحديثًا برسول الله ﷺ من فاطمة، وكانت إذا دخلت عليه قام إليها فقبلها، ورحب بها، وأخذ بيدها، وأجلسها في مجلسه»^(٢)، فكانت مشيتها في الوصول إلى المسجد كمشيته ﷺ، فلهذا بعدُ عاطفيّ مادّيّ، ورمزٌ نفسيّ وشعوريّ، وحضور اجتماعيّ، ووسيلة مهمّة في الافتتاح الكبير، وتنشيط التواصل؛ لأنها تومئ إليه ﷺ وتذكّر بمقامه ﷺ، «حركة الجارحة حركة ديناميّة بحكم ارتباطها بالمقام والسياق المائل في ذهن المتحاورين... وإذا كانت كذلك وجب تناولها... من حيث معناها... بمعنى أنّ إنجازها أو تحقّقها وفهمها يرتبطان بسياق الحديث»^(٣).

ومن هذه سياقات الحديث المقاميّة ما يُذكر أنّها عليها السلام كانت موضع سرّ رسول الله ﷺ واطمئنانه، بدليل ما جاء «في صحيح البخاري: قال مسروق عن عائشة عن فاطمة رضي الله عنها: أسرّ النبي ﷺ إليّ أنّ جبريل كان يعارضني بالقرآن كلّ سنة، وأنّه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلّا حضور أجلي»^(٤).

(١) اللغة والجسد: ٢٤٣، ٢٤٥.

(٢) المستدرک علی الصحیحین: ١٦٠/٣، والجامع الصحیح: ٣٦١/٥.

(٣) اللغة والجسد: ٢٧٥.

(٤) البرهان للزركشي: ٢٣٢/١.

ومن مقام السيدة وبعلمها وبنيتها ما جاء في صحيح مسلم: (أمر معاوية بن أبي سفيان سعدًا «بن أبي وقاص» فقال: ما منعك أن تسبّ أبا تراب؟ فقال: أما ذكرت ثلاثًا قالهنّ له رسول الله ﷺ، فلن أسبّه، لأن تكون لي واحدة منهنّ أحبّ إليّ من حمر النعم... «أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى، ألا أنّه لا نبوة بعدي»، وسمعت يقول يوم خيبر: «لأعطين الراية رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبّ الله ورسوله»... ولما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(١) دعا رسول الله ﷺ عليًا وفاطمة وحسناً وحسيناً، فقال: «اللهم هؤلاء أهلي»^(٢).

ويقال: إنّ «في كلّ دين صورة للأئمة الكاملة المقدّسة... في المسيحية صورة مريم العذراء، ففي الإسلام لا جرم تتقدّس فاطمة صورة فاطمة البتول»^(٣).

وقد كان هذا الربط بين مريم بنت عمران ؑ وفاطمة الزهراء ؑ عند المفسرين، في مثل ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(٤)، «قال المظهري في تفسيره: قد صحّ أنّ رسول الله ﷺ قال لفاطمة حين زوجها علياً اللهم إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم وكذا قال لعليّ حينئذ، رواه ابن حبان من حديث أنس، ودعاء النبي ﷺ أولى بالقبول من دعاء امرأة عمران فأرجو عصمتها وأولادها من الشيطان وعدم مسّه إيّاهم، وحصر عدم المس في مريم وابنها الثابت بالحديث على هذا يكون حصراً إضافياً، انتهى»^(٥).

(١) آل عمران: ٦١.

(٢) صحيح مسلم، حديث ٦٢٤٦، ص ٩٠٨-٩٠٩.

(٣) السيدة فاطمة الزهراء ؑ لمحمد بيومي: ١٥.

(٤) آل عمران: ٣٦.

(٥) الميزان: ١٥٢/٣-١٥٣.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١) قال الزمخشري: رُوي أَنَّهُ كَانَ لَا يَدْخُلُ عَلَيْهَا إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ، وَكَانَ إِذَا خَرَجَ غَلَقَ عَلَيْهَا سَبْعَةَ أَبْوَابٍ... كَانَ رِزْقُهَا يَنْزِلُ عَلَيْهَا مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَمْ تَرْضَعْ ثَدِيًّا قَطُّ، فَكَانَ يَجِدُ عِنْدَهَا فَاكْهَةَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ وَفَاكْهَةَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ... مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا الرِّزْقُ الَّذِي لَا يَشْبَهُ أَرْزَاقَ الدُّنْيَا، وَهُوَ آتٍ فِي غَيْرِ حِينِهِ، وَالْأَبْوَابُ مَغْلُقَةٌ عَلَيْكَ لَا سَبِيلَ لِلدَّخْلِ بِهِ إِلَيْكَ، (قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)، فَلَا تَسْتَبْعِدُ... وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ جَاعَ فِي زَمَنِ قَحْطٍ، فَأَهْدَتْ لَهُ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَامَ رَغِيفَيْنِ وَبُضْعَةَ لَحْمٍ آثَرْتَهُ بِهَا، فَرَجَعَ بِهَا إِلَيْهَا، وَقَالَ: «هَلُمِّي يَا بَنِيَّةَ، فَكَشَفْتُ عَنِ الطَّبَقِ، فَإِذَا هُوَ مَمْلُوءٌ خَبَزًا وَلَحْمًا فَبُهِتَتْ، وَعَلِمَتْ أَنَّهَا نَزَلَتْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهَا ﷺ: «أَنْتِ لِكِ هَذَا؟» فَقَالَتْ: «هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ». فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَكَ شَبِيهَةَ سَيِّدَةِ نِسَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ»^(٢).

أَمَّا نَصُّ الْخُطْبَةِ نَفْسَهُ فَقَدْ أَزْدَادَ مَكَانَةً وَخُلُودًا، اسْتِنَادًا إِلَى مَقَامِ الْمُتَحَدِّثَةِ وَمَكَانَتِهَا الْعَظِيمَةِ، فَضْلًا عَنْ كَوْنِهِ نَصًّا أَدَبِيًّا جَمَالِيًّا وَعَمَلًا مَنْظُمًا، اتَّصَلَ بِأَهَمِّ قَضَايَا الْمَجْتَمَعِ. فَعَلَى دَارِسِ هَذَا النِّصِّ اكْتِشَافَ الْعِلَاقَاتِ الْمُؤَلَّفَةِ لِأَجْزَائِهِ، وَإِقَامَةَ حِوَارٍ عَمِيقٍ وَمُتَجَدِّدٍ بَيْنَ مَكُونَاتِهِ، بَدَأَ مِنْ أَصْغَرِ وَحْدَاتِهِ وَمَرُورًا بِأَبْنِيَّتِهِ وَأَنْسَاقِهِ، مُتَّبِعًا هَذِهِ الْأَبْنِيَّةَ فِي حِوَارِهَا وَجَدْلِهَا، سَعِيًّا إِلَى الْوُقُوفِ عِنْدَ الْمَغْزَى الْكَلِيِّ لِلنِّصِّ مِنْ اسْتِكْشَافِ الْمُنْطَقِ الرَّابِطِ بَيْنَ الْقَضَايَا الَّتِي بَثَّهَا فِي مُؤَلَّفِهِ.^(٣)

فَمِنْ الْمُنْطَقِ الَّذِي اسْتَنْدَتْ إِلَيْهِ فِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ قِرَابَةُ النَّبِيِّ ﷺ وَبَلَاءِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْجِهَادِ وَمُؤَهَّلَاتِهِ وَعِلْمِهِ مِنْ أَحْقِيَّاتِ الْخِلَافَةِ، وَإِنَّ عَلِيًّا أَحَقُّ النَّاسِ بِالْخِلَافَةِ، فِي قَوْلِ

(١) آل عمران: ٣٧.

(٢) الكشف: ١٧٠-١٧١.

(٣) ديناميّة النص، محمد مفتاح: ٩٩، عن الخطاب الأدبي: ٦١.

عليّ عليه السلام: «لنحْنُ أحقُّ بهذا الأمر منكم... لأنّا أهل البيت»^(١)؛ فهو ربيب النبي وابن عمّه، وزوج ابنته، وأبو الحسينين، وأوّل الناس إسلامًا، وأطولهم في الجهاد باعًا، ومثلما عرضنا من أنّ السيدة قد طافت بمجالس الأنصار مجلسًا مجلسًا تسألهم أن يؤيّدوا أبا الحسن، لكنهم كانوا يقولون قد مضت بيعتنا لأبي بكر، ولو سبق إلينا لما عدلنا به أحدًا، فيجيبهم أفكنت أدعُ رسول الله في بيته ولا أدفنه وأخرج أنازع في سلطان؟^(٢)

و«عن أبي جعفر محمد بن عليّ عليه السلام، أنّ عليًّا حمل فاطمة على حمار، وسار بها ليلاً إلى بيوت الأنصار، يسألهم النصرة، وتسألهم فاطمة الانتصار له، فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله، لقد مضت بيعتنا لهذا الرجل، لو كان ابن عمك سبق إلينا أبا بكر ما عدلنا به، فقال عليّ: أكنت أترك رسول الله ميتاً في بيته لا أجهزه، وأخرج إلى الناس أنازعهم في سلطانه»^(٣).

وغضبُ فديكٍ يثني بالتفكير بما هو أبعد منها، إذ تظهر الخطبة الموقف والمقام بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله، بل أنّ مدار الخطبة أوسع من فديك عند أناس متقشفين قالين لهذه الدنيا الفانية، بدليل أنّهم لم يجعلوها همّهم الأول، وقد تركها أمير المؤمنين ولم يأخذها، لما ولي الخلافة والولاية، إذ قال عنها في خطبة له: «شحت عليها نفوس وسخت بها أنفس»^(٤).

سابعاً: التناصّ intertextuality

التناصّ: ارتباط نصّ بنصوص أخرى، والجميع مرتبط بشبكة نصّية خاصة،

(١) الإمامة والسياسة: ١٩/١.

(٢) الإمامة والسياسة: ١٩/١، وفاطمة الزهراء، توفيق أبو علم: ١٢٨.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٨٠/٥.

(٤) شرح نهج البلاغة: ٢٠٨/١٦.

فالتناصّ تعبير عن تبعيّة النصّ لغيره من النصوص، أو تداخله معها^(١)، أو الحضور الفعلي لنصّ في نص آخر، أو مجموعة من النصوص التي لها علاقات بنص محدّد، أو علاقة حضور مشترك بين نصين، بقصد أو من دون قصد، إذ يمكن أن يكون من التناصّ الاقتباس والتضمين، فالنصّ الحاضر يستعين بنصوص أخرى غائبة تستحضر للتوثيق، أو التقوية، أو الارتباط، أو التوضيح، أو التفصيل.... والنصوص العربيّة الفصيحة مليئة بالتنصيص من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وغيرهما.^(٢)

فالنص يرتبط بنصوص أخرى، هي مراجع ثقافة المجتمع، ولفهم حركة المجتمع لا بُدّ من معرفة هذه الشبكة، ولاسيما ما يؤول إليه النصّ منها، فالتعرّف على النصّ يستوجب تحليل شبكة الخطابات استناداً إلى مجموعة من نصوصها في حدود تجربة سابقة سواء بوساطة أم بغير وساطة.^(٣)

ويتحقّق التناصّ (عندما يتضمن مجموعة من النصوص السابقة عليه، بشرط أن يحدث التفاعل والتعالق في اللفظ والمعنى بين هذه النصوص المتداخلة).^(٤) ويتميّز التنصيص من القرآن الكريم أو الاستشهاد به ما يرتفع بالنصّ المنشأ لفظياً ودلالياً، ويبلغ به المرحلة القطعية في الحكم على المتلقين من أتباعه، فضلاً عن القوّة في الأسلوب، والدمج في السياق، (وإذا كان القرآن يحمل في مضمونه أدوات التغيّر أي أنه كتاب إصلاح، فيكون في هذه الحالة حجاجاً دون شك، إذ إنّ من تعريفات الحجاج أنّه: عمل غرضه دائماً أن يُغيّر وضعاً قائماً).^(٥)

(١) علم لغة النصّ: ١٤٦، النص والخطاب: ١١٧.

(٢) نحو النص بين الأصالة والحداثة: ٩٥.

(٣) النص والخطاب: ١١٧.

(٤) نحو النصّ بين الأصالة والحداثة: ٩٢.

(٥) بنية الحجاج، بحث د. فاطمة: ٢٥٨.

وهذا هو الغرض من الخطبة، التي هي نصّ مكثف، اتخذ الكثير من النصوص القرآنية الكريمة المباشرة وغير المباشرة، وقد تشربت بها الخطبة واستقت منها، والنص القرآنيّ يعرفه المخاطب والقارئ وهو الحجة القويّة عليه، لهذا يكون التوصيل به قد بلغ مداه، والترابط معه بوصفه (علاقة دلاليّة لتنام النص الخطابي وانسجامة قد تحقق بتعلق العوالم الممكنة، الذي يُعدّ من أهمّ شروط التوافر في النصّ في الحجاج بالبنية القرآنيّة في خطبة الزهراء).^(١)

وقوّة نصّ الخطبة أنّها سُبكت من نسج ألفاظ القرآن الكريم وتراكيبه ومعانيه، إذ دجت أسلوبها بأسلوبه وهو مرجعها، ومصدر معرفتها، حتى أنّ التجربة الإسلاميّة بكلّ تفصيلاتها الحلوة والمرّة هي تجربتها، بل كانت همّها وهمتها، ولدت معها وودّعت بسببها؛ فهي من رؤوس أهل القرآن، وقد فرض لها نصّه المكانة العالية ولاسيّما ما جاء في آية التطهير، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.^(٢)

لذلك فالحجج القرآنية كانت حجج السيدة ومستندها، وإتّها ردّت بنصوصه ما دُبّر، واستعانت به فيما واجهت، فالمتلقّي يجدّ الخطبة تنطق بنصوص القرآن الكريم، ومشحونة بتضمّن معانيه، وتُحاكي أسلوبه، وقد وظفت كلّ ذلك في ضمن أجواء الخطبة وبنائها، وقد صرّحت بحيازة أهل البيت علم نصّ القرآن الكريم، في قولها: «أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمّي؟»^(٣)، وتقول: «معنا كتاب الله، بينة بصائره، وآيّ منكشفة سرائره، وبرهان منجلية ظواهره... فيه بيان حجج الله المنورة وعزائمه المفسرة، ومحارمه المحذرة وبيناته الجالية، ورخصه الموهوبة، وشرائعه

(١) بنية الحجاج، بحث د. فاطمة: ٢٦١.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

(٣) دلائل الإمامة: ١١٤.

المكتوبة»^(١)، فالخطبة تتمسك بعرى القرآن من بدئها إلى منتهاها، كيف لا... وهي من البيت الذي هو عدل القرآن، وهي النبتة القرآنية المباركة، التي فتحت عينيها على نور هداية القرآن الكريم، وتشبعت نفسها وروحها به، فهي تسمعه وتقرؤه، وتتأدّب وتؤدّب بأدبه؛ لأنها ابنة أبيها ﷺ المبعوث بمعجزة القرآن الكبرى رحمة للعالمين.

وكان انتظام ارتباط الاقتباسات وانسجامها قد أظهر المكانة السامية للخطبة، وأضفى عليها أجواء الصلة الربانية النبوية، ذلك ما أثر تأثيراً مباشراً في المخاطبين؛ لأنّ مسار الخطبة منسجم والدعوة المباركة، ومن منطلقها في التبليغ والنصح والإرشاد والترغيب والترهيب، فضلاً عن أنّ الاقتباس من القرآن الكريم يعيد تأطير الكلام، ويجدد التفاعل بمضامينه، لذلك قيل «من أهمّ الشروط التي يمكن إجراؤها في الحجاج في البنية القرآنية في ضوء منظور لسانيات الخطاب في محور الترابط، هو شرط تعالق العوالم الممكنة، بين البنى القرآنية في فضاء النصّ الخطابي للزهراء ﷺ»^(٢).

ومن (تعالق العوالم الممكنة) الانفتاح على النصّ القرآني الكريم، وانفتاح النصّ يعني خلق التواصل بين الخطبة، والمتلقي، والقرآن، وهذا التواصل يوسع آفاق التفكير والتفاعل في الربط بين الخطبة والنصوص، ويتطلّب هذا من المتلقي تأمل أجواء ما دارت به هذه الخطبة، وما يُريده النصّ القرآني؛ لأنّ الإحالة القصديّة على النصوص القرآنية كان من المقام العالي لسيدة النساء، لا من أيّ متكلم أو خطيب، والسيدة من رؤوس أهل القرآن مثلما قلنا، فلا بُدّ من استيعاب مديات الحاجة التي دارت بمدارها الإحالات، للخروج بتشكيل جديد لما كان سبباً للخطبة نفسها، وما أرادته السيّدة على وجهه الصحيح، أو قل الأقرب إلى فهم المتلقي الذي يتأمل مضامين هذه الخطبة وما يمكن أن تدلّ عليه كلّ جزئية من جزئياتها.

(١) دلائل الإمامة: ١١٣-١١٤.

(٢) بنية الحجاج، د. فاطمة: ٢٥٩.

فكم من قارئ لا يفهم ما يقرأ؟

أو ربّما لا يُريد أن يفهم ما يقرأ!

وكم من قارئ يفهم جزءاً ممّا يقرأ؟

وكم من قارئ يفهم كلّ ما يقرأ؟

إذن لا بُدّ للقارئ الحاذق أن يُفكّر في إدراكِ غايات المؤلف، وطبيعة النصّ وسياقه، والعناصر التي استعان بها.^(١)

ولا بُدّ لنا في معرض النصيّة والتناصّ، أن نعرض مرة أخرى المرّات التي استشهدت بها السيّد من نصوص قرآنيّة مباشرة، وغير مباشرة، على وجه التقريب لا الدقّة والتحديد.

أمّا النصوص المباشرة فقد زادت على العشرين، ومنها:

١. ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(٢)، فكان هذا في معرض الربط برسول الله ﷺ، من أوّل الخطبة ومن مقطع افتتاحها الدعويّ الودّيّ، فقد ذكرت الآية الحرص عليهم.

٢. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٣).

٣. ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٤).

٤. ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾^(٥).

٥. ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾^(٦).

(١) علم اللغة النصّي: ١١١/١-١١٢.

(٢) التوبة: ١٢٨.

(٣) آل عمران: ١٠٢.

(٤) المائدة: ٥٠.

(٥) المائدة: ٦٤.

(٦) التوبة: ٤٩.

٦. ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(١)
٧. ﴿يَسْ لِّلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾^(٢)
٨. ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾^(٣)، في سياق الحجاج في الإرث، فقد استدلت للإرث بخمس آيات، هذه واحدة منها.
٩. ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾^(٤)
١٠. ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾^(٥)
١١. ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾^(٦)
١٢. ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(٧)
١٣. ﴿...وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(٨)،
١٤. ﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾^(٩)،
١٥. ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾^(١٠)
١٦. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾^(١١)

(١) المائدة: ٥٠.

(٢) الكهف: ٥٠.

(٣) النمل: ١٦.

(٤) مريم: ٥-٦.

(٥) الأحزاب: ٦.

(٦) النساء: ١١.

(٧) البقرة: ١٨٠.

(٨) الشعراء: ٢٢٧.

(٩) آل عمران: ١٠٣.

(١٠) الأنعام: ٦٧.

(١١) هود: ٣٩.

١٧. ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾^(١).
١٨. ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(٢)،
١٩. ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٣)،
٢٠. ﴿...بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾^(٤).

٢١. ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^(٥).

أما النصوص غير المباشرة من التي تحيل على القرآن الكريم، ذلك من ألفاظ أو عبارات أو تراكيب، يلحظ منها ظلال قرآنية، ولم تكن مباشرة بل قريبة من المباشرة، وهي كثيرة يجدها المتأمل، تربط النص ربطاً داخلياً، في وظيفة إحالية، قصدها منتج النص قصداً، أو جاءت عفو الخاطر ولم يقصدها، فالنص يقابله تنقيص، ومن الألفاظ أو العبارات أو التراكيب:

١. ألفاظ الحمد والثناء وهي كثيرة، لا نذكرها حتى لا يطول الكلام بها، بل نحيل على ما عرضناه من النص نفسه.
٢. (لا تتولوا مدبرين): ﴿وَصَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾^(٦)
٣. (نحن آل رسوله، ونحن وسيلته في خلقه): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ

(١) هود: ١٢١.

(٢) محمد: ٢٤.

(٣) المطففين: ١٤.

(٤) يوسف: ١٨.

(٥) آل عمران: ١٤٤.

(٦) التوبة: ٢٥.

وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴿١﴾.

٤. (طاعتنا نظاماً للملّة): ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾. (٢).
٥. (تنكصون عند النزال): ﴿فَلَمَّا تَرَأَتْ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾. (٣).
٦. (لا أقول... شططاً): ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾. (٤).
٧. (صادعاً بالندارة): ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾. (٥).
٨. (داعياً إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة): ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾. (٦).
٩. (فهيئات منكم وكيف بكم وأنّي تؤفكون): ﴿فَأَنّٰى تُؤَفَّكُونَ﴾. (٧).
١٠. (موصولة بنار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة): ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفِتَّةِ﴾. (٨).
١١. «أنا ابنة نذير لكم»: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾. (٩).
١٢. (بثة الصدر: خروج ما في القلب من الحزن): ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾. (١٠).

(١) المائدة: ٣٥.

(٢) آل عمران: ٣٢.

(٣) الأنفال: ٤٨.

(٤) الكهف: ١٤.

(٥) الحجر: ٩٤.

(٦) النحل: ١٢٥.

(٧) الأنعام: ٩٥.

(٨) الهمزة: ٦-٧.

(٩) الأحزاب: ٤٥.

(١٠) يوسف: ٨٦.

١٣. (لقد جئت شيئاً فرياً): ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾^(١)
١٤. (وعند الساعة يخسر المبطلون): ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾^(٢)
١٥. (ونفثة الغيظ): ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾^(٣)
١٦. (فيضة النفس): ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾^(٤)
١٧. (فاحتقبوا دبرة الظهر): ﴿لَا يَشِينُ فِيهَا أَحْقَابًا﴾^(٥)
١٨. (موسومة بغضب الله): ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ سَجِيلٍ ۖ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾^(٦).
- وقد تقوّت الخطبة أيضاً بالحديث النبوي الشريف، في قولها: «يا معشر النقيبة، وأعضاء الملة، وحنضة الإسلام، ما هذه الفترة عن نصرتي، والوئية عن معونتي، والغمزة في حقي، والسنة عن ظلامتي! أما كان رسول الله ﷺ يقول: المرء يحفظ في ولده!».^(٧)

(١) مريم: ٢٧.

(٢) الجاثية: ٢٧.

(٣) الفلق: ٤.

(٤) الأعراف: ٥٠.

(٥) النبأ: ٢٣.

(٦) الحجر: ٧٤-٧٥.

(٧) كشف الغمة: ١١٥/٢.

الخاتمة

خطبة الزهراء سيدة النساء وثيقة ثقافية إسلامية عالية، لا طويلة مملة ولا قصيرة مخلة، وهي شكل تعبيرى لآم مقتضى ما كان من موقف، ووحدة لغوية تواصلية، لها الأهمية الكبرى في تبصير الأفراد والجماعات ممن خاطبتهم، وممن يتأمل من بعدهم ما جرى مثلما جرى، كانت غايتها الإبلاغ، والاستشارة، والإعلان عن أمر خطير، إذ ظهر في هذه الخطبة قصد المؤلف منتج النص، وقبول التفاعل الواسع من السامع ومن ثم القارئ.

والخطبة نص مفتوح، وخطاب نهضة، ورسالة تفاعلية، وانعقاد حوار، وتعدد أصوات، اتسع تأثيرها باتساع الدهر، كانت قد ذكّرت بواجبات وتشريعات أساسية، لامت من أخذ بغيرها، وقرّعت من تجاهل أحكامها، وهدّدت من انقلب عليها.

نسقت هذه الخطبة بين الثابت الذي جاء به الرسول ﷺ، الذي عبرت عنه بضمير المتكلم «أنا» أو المتكلمين «نحن» من جهة، ومن الجهة الأخرى المتغير الجماعة المخاطبة «أنتم»، وركّز البحث على متابعة الثابت والمتغير، ومنه التذكير بالقرآن النص الثابت، إذ إن نص الخطبة قد يلّمح، أو قد يصرّح بأن المخاطبين حاولوا تجاوز أحكامه، ومركز الاحتجاج والاستشهاد قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^(١)، ففي هذه الآية أصدق المراجع، وأبلغ الإشارات، فضلاً

(١) آل عمران: ١٤٤.

عن حرارة التوصيل، وقوة الربط بالعلامات.

فالنص يثير متلقيه، ويدعوه إلى الموازنة والتحليل ومراجعة الأفكار الكبرى، التي تضمنتها هذه الخطبة، والبحث في ثقلها الدلالي، وفي أسرارها، وشفراتها التي لا تسلم نفسها تسليماً كاملاً إلا لمن يعي منطق ما تحمله من توجيه أو تفكير، وإلا لمن يديم النظر إلى الأجزاء المؤلفة له، وقد تحرر هذا المتلقي مما تركّز عنده من سطحية الآراء، وانطلق من زاوية نظر موضوعية، أساسها التفاعل والانفتاح، والإخلاص للحقيقة.

فمضمون الخطبة التبصير، والتحريض، ورفض ما آلت إليه الأمور بعد رسول الله ﷺ، إذ ما كانت آفاق تأثير حجاج السيدة محصورة بالذريعة الظاهرة للخطبة، بل منطلقاً للتذكير بثوابت وأسس واضحة يعرفها المخاطبون، لكنهم تصرّفوا بخلافها؛ لأن مقصد الخطبة المعلن وغير المعلن، التنبيه على عدم استيفاء مخرجات السقيفة مستلزمات الاستحقاق والأهلية لمقام المبعوث رحمة للعالمين.

فلا بد لمن يريد الحقيقة من المراجعة العلمية لوحدة الخطاب وأجزائه، واستنتاج مقدمات الفتنة التي سبقته، والتنقيب في كلّ الأسباب، ومن زواياها المختلفة، ويتبصر بقوة الحضور والحجج التي كانت لسيدة النساء، وأن ينظر إلى الواقع الذي واجهه هذا الخطاب من حيث منطقته وحقيقته، وكذلك نسق هذا الواقع الذي فرض، بتتابع، وبتدبير منظم، ليتأمل دواعي صرخة الوعيد الكبرى، وردّ اليأس الشديد، في سياق الذروة والغاية في ختام خطاب السيدة: «فدونكموها، فاحتقبوها، دبرة الظهر، نقبة العار، موسومة بغضب الله، وشنار الأبد موصولة بـ ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ»^(١)... وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فـ ﴿اعْمَلُوا... إِنَّا عَامِلُونَ﴾

وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١﴾».

وقد يقول قائل: إنَّ ما كان قبل وفاة المبعوث مقدمة لما بعده، في رأي من يرى أنهم (منعوا رسول الله ﷺ من مقاومة الخطر المرتقب حينما أراد أن يكتب «كتاباً لا يضلَّ المسلمون بعده أبداً» والفتنة ضلال، وإذن فلا فتنة بعد ذلك الكتاب أبداً، فهل كانوا يشكّون في صدق النبي ﷺ؟! أو يرون أنَّهم أقدر على الاحتياط للإسلام والقضاء على الشغب والمهرج من نبيِّ الإسلام ورجله الأول؟! (٢).

الله تعالى أعلم... والحمد لله ربَّ العالمين، والصلاة والسلام على نبيِّ الرحمة وآله الطيبين الطاهرين.

(١) هود: ١٢١-١٢٢.

(٢) فذك في التاريخ: ١٣٦.

المصادر

القرآن الكريم

- آفاق التناسلية، المفهوم والتطور، د محمد خير البقاعي، مصر ١٩٩٨.
- آليات التأويل وتعدد القراءات مقارنة نظرية نقدية، د. بو جمعة بوبعوي، دمشق، ٢٠٠٣.
- الاحتجاج، الطبرسي، النجف، ١٩٦٦.
- الإحكام في أصول الأحكام، الأمدي، الرياض ١٣٨٧.
- الأسلوبية، الرؤية والتطبيق، أ. د. يوسف أبو العدوس، ط ٢، عمان، ٢٠١٠.
- إشكالات النص، جمعان عبد الكريم، الرياض، ٢٠٠٩.
- أصول الكافي، محمد يعقوب الكليني، بيروت، ٢٠٠٨.
- أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ط ٢، دمشق، ١٩٥٩.
- أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، دمشق، ١٩٣٦.
- الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، تح د. طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي، د. ت.
- بحار الأنوار، للمجلسي، تح عبد الزهراء العلوي، بيروت، ١٤٠٣.
- البداية والنهاية، ابن كثير، بيروت، ١٩٨٨.
- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٣، دار الفكر، ١٩٨٠.
- بلاغات النساء، ابن طيفور، قم، د. ت.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي، تح مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، ٢٠٠٤.
- بنية الحجاج، د. فاطمة كريم رسن، من ضمن وقائع المؤتمر السنوي لفكر السيدة الزهراء عليها السلام، ٢٠١٣.

- تاج العروس، الزبيدي، الكويت، د. ت.
- تاريخ الأمم والملوك، الطبري، بيروت، د. ت.
- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، تح مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، ١٩٩٧.
- التحرير والتنوير، ابن عاشور، بيروت، ٢٠٠٠.
- تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، بيروت، ١٩٨٤.
- تهذيب اللغة، الأزهرّي، تح عبد السلام هارون، ١٩٦٤-١٩٦٩.
- التوحيد، السيد كمال الحيدري، ط ٢، ٢٠٠٤.
- جامع الأخبار الفاطمية، عتريس وقلان، بيروت، ٢٠١٠.
- الجامع الصحيح، الترمذي، تح عبد الرحمن محمد عثمان، بيروت ١٩٨٣.
- الجنى الداني في حروف المعاني، للمرادي، تح د. قباوة، ومحمد نديم، بيروت، ١٩٩٨.
- حياة الزهراء بعد أبيها، فضل علي القزويني، مشهد، ١٤٢٦.
- الخطاب الأدبي ورهانات التأويل، نعمان بوقرة، إربد، ٢٠١٢.
- الخطط الإسلامية لتوحيد الأمة، الأستاذ أحمد حسين يعقوب، ط ٢، ١٤١٥ هـ.
- دراسات في الحجاج، د. سامية الحُسَني، إربد ٢٠٠٩.
- دراسات في اللسانيات التطبيقية، د. حلمي خليل، مصر، ٢٠١٠.
- الدّر المصون، السمين الحلبي، بيروت، ١٩٩٤.
- دلائل الإعجاز، للجرجاني، بيروت، ١٩٨٧.
- دلائل الإمامة، الطبري، قم، ١٤١٣.
- الزهراء سيدة نساء العالمين، مكارم شيرازي، تعريب عبد الرحيم حمزاني، ط ٢، قم، ١٤٢٨ هـ.
- السقيفة وفدك، الجوهري، تح د. محمد هادي الأميني، ط ٢، بيروت، ١٩٩٣.
- السنن الكبرى، البيهقي، بيروت، د. ت.
- سير أعلام النبلاء، الذهبي، ط ٢، بيروت، ١٩٩٣.
- الشافعي في الإمامة، الشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ)، تح عبد الزهراء الحسيني، قم، ١٤١٠ هـ.

- شرح خطبة الزهراء عليها السلام، المجلسي، تح الشيخ نزيه القميح، ط ٢، بيروت، ١٩٩٥.
- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، بيروت، ٢٠٠٤.
- صحيح البخاري، بيروت، ١٩٨١.
- صحيح مسلم، بيروت، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، د. ت.
- علم اللغة النحوي، د. صبحي إبراهيم الفقي، القاهرة، ٢٠٠٠.
- فاطمة الزهراء، توفيق أبو علم، دار المعارف ط ٨، ٢٠٠٤.
- فاطمة الزهراء والفاطميون، العقاد، القاهرة، ١٩٦٧.
- غريب الحديث، لابن سلام، حيدر آباد، ١٩٦٥.
- فدك في التاريخ، محمد باقر الصدر، تح د. عبد الجبار شرارة، بيروت، ٢٠٠١.
- الفهرست، لابن النديم ت ٤٣٨ هـ، ط ٢ بيروت، ٢٠٠٢.
- الكامل في التاريخ، لابن الأثير، بيروت، ١٩٦٦.
- كتاب سليم بن قيس الهلالي، تح محمد باقر الأنصاري، ط ٤، قم، ١٤٣٠.
- الكشاف، للزمخشري، بيروت، ٢٠٠٢.
- كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، للإربلي، بيروت، ١٩٨١.
- كنز العمال، للمتقي الهندي، بيروت، ١٩٨٩.
- لسان العرب، لابن منظور، مصر، د. ت.
- لسانيات النص، نحو منهج تحليلي لتحليل الخطاب الشعري، د. أحمد مداس، الأردن، ٢٠٠٩.
- اللسانيات وتحليل النصوص، د. رابع بوحوش، إربد، ٢٠٠٩.
- اللغة والجسد، الأزهر الزناد، العراق، ٢٠١٤.
- مجمع البيان، للطبرسي، بيروت، ١٩٩٢.
- المحرر الوجيز، لابن عطية الأندلسي، تح عبد السلام عبد الشافي، لبنان، ٢٠٠١.
- مدخل إلى علم لغة النص، بو جراند ودرسلر، مصر، ١٩٩٩.
- مدخل إلى علم النص، زتسيسلاف، تر د. سعيد حسن بحيري، القاهرة، ٢٠٠٣.

- المستدرك على الصحيحين، للنيسابوري، بيروت، د. ت.
- مسند الإمام أحمد، بيروت، د. ت.
- مسند فاطمة، لعزیز الله العطاردي، ١٤١٢هـ.
- المصنف، عبد الرزاق الصنعاني، د. ت.
- معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي، بغداد، ١٩٩١.
- معجم رجال الحديث، للخوئي، ط ٥، ١٩٩٢.
- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تح عبد السلام هارون، ١٩٧٩.
- مفردات ألفاظ القرآن الكريم، للراغب الأصفهاني، بيروت، ٢٠١٠.
- مقتل الإمام الحسين، الخوارزمي، النجف ١٩٤٨هـ.
- مناقب آل أبي طالب، لابن شهر آشوب، النجف، ١٩٥٦.
- مناقب عليؑ، لابن مردويه، تح عبد الرزاق محمد حسين حرز الدين، ط ٢، قم، ١٤٢٤.
- منال الطالب في شرح طوال الغرائب لمجد الدين بن الأثير، تح محمد محمود الطناحي، القاهرة.
- مواهب الرحمن، عبد الأعلى السبزواري، ط ٢، قم، ٢٠٠٧.
- الميزان، للطباطبائي، بيروت. ٢٠٠٦.
- ميزان الاعتدال، للذهبي، تح علي محمد البجاوي، بيروت. د. ت.
- نحو النص، د. أحمد عفيفي، القاهرة، ٢٠٠٠.
- نحو النص، نقد النظرية وبناء أخرى، د. عمر أبو خرمة، الأردن، ٢٠٠٤.
- نحو النص بين الأصالة والحداثة، أحمد محمد عبد الراضي، القاهرة، ٢٠٠٨.
- النص والخطاب، شتيفان هابشايد، تر أ. د موفق محمد جواد المصلح، بغداد، ٢٠١٣.
- النص والخطاب والإجراء، بوجراند، ترجمة د. تمام حسان، مصر، ١٩٩٨.
- نهاية التحقيق فيما جرى في أمر فذك، محمد مهدي السيد حسن الخرسان، د. ت.
- نهج البلاغة، ط د. صبحي الصالح، الخطبة الخامسة ص ٥٢

المحتويات

٣	الإهداء
٥	خطبة الزهراء عليها السلام
١١	المقدمة
١٧	التمهيد في توثيق نص الخطبة والتعريف بمقاصد دراستها
٣١	أهم مقاصد دراسة الخطبة
٣٧	الفصل الثاني مقاطع الخطبة السبعة
٣٩	مقاطع الخطبة السبعة
٤٠	المقطع الأول: مقطع الافتتاح
٤٩	المقطع الثاني: مقطع التذكير بدوام التكليف
٥٢	المقطع الثالث: مقطع علل التشريع
٥٦	المقطع الرابع: مقطع التعريف بمكانة سيّدة النساء
٦٠	المقطع الخامس: مقطع المخاطبين والفتنة الكبرى
٦٤	المقطع السادس: مقطع الإرث وحجج الوراثة
٦٩	المقطع السابع: مقطع استنصار الأنصار
٧٣	الفصل الثاني ثنائية الأنا والآخر في الخطبة
٧٥	تمهيد
٧٧	المبحث الأول عود الضمائر على سيّدة النساء

٨٣	الزهراء وذكر نسبتها إلى والدها في النص:
٨٧	المبحث الثاني المخاطبون في الخطبة
٩٥	الفصل الثالث معايير النص السبعة
٩٧	تمهيد
١٠٠	أولاً السبك: Cohesion
١٠٣	١. ثنائية الأنا والآخر:
١٠٦	٢. التكرار: كتكرار:
١١٠	٣. الإحالة
١١٣	ثانياً: الحبك: Coherence
١١٨	ثالثاً: القصد: Interntionality
١٢٥	رابعاً: القبول: Acceptability
١٣٠	خامساً: الإعلامية: Informativty
١٣٦	سادساً: المقامية: Situationlity
١٤١	سابعاً: التناسّ: intertextuality
١٥١	الخاتمة
١٥٥	المصادر